الإنسان

بين النشأة والبعث

عماد كوسا

. الإنسان بين النشأة والبعث
. عماد كوسا
. الطبعة الأولى 2004 . 500
. صدر بعناية دار عبد المنعم . ناشرون
. جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

دار عبد المنعم . ناشرون
مؤسسة ثقافية تعنى بنشر الأدب والفكر والعلوم العربية والعالمية
سورية . حلب . شارع القوتلي . ص.ب: 6567 . تلفاكس 2114512

الإهداء

إلى من
أمسك بيدي في أول خطوة خطوتها على هذه الأرض.
إلى من
ذرفت دموعها لأجلي.
إلى من
رافقتني الأيام القاسية وتسير معي في رحلة الحياة.

إلى الطفلة التي تنمو في حضن كل هؤلاء.

*** بسم الله الرحمن الرحيم ***

مقدمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويدفع نقمه، ويكافئ مزيدهُ
اللهم لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.
وبعد:

لقد حاول علماء الدين في أوربا في ظلام القرون الوسطى الفصل بين العلم والدين، وعملوا جهدهم على إبقاء العامة من الناس جهلى، لا تسعفهم يد العلم، حرصاً على بقاء سيطرتهم الدينية، وولاءِ الناس المطلق لهم، وروّجوا أَساطيَر تقول بأن الشجرة المحرمة التي أكل منها آدم كانت شجرة العلم، فحريٌ بكل الناس أن يبتعدوا عن العلم. وأوهموا الناس أن ذلك يرضي الرب.

علاوة على ذلك فإنهم حاربوا بشدة كل من سلك سبيل العلم، فقتلوا الكثير من الذين أتوا بأفكار علمية جديدة تناقض المألوف.

في هذه الأثناء كان المسلمون ينشرون عقائد دينهم الجديد في كل أصقاع الأرض، مبينين للناس أن هذا الدين الجديد عماده العلم، إذ إنه يقوم على إعمال العقل والفكر في خلق الله تعالى وربط عجائب الخلق بقدرة الخالق.

واستطاع المسلمون بالاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الرد على كل الماديين المتشككين في وحدانية الخالق، وكيفية الخلق

كما بيّنوا أنّ الكثير من المكتشفات العلمية التي يتفاخر بها الماديون إنما هي حقائق مثبتة في القرآن الكريم منذ قرون.

وأمام هذه الحقيقة فإنني أعرض في هذا البحث موضوعاً شائكاً تناوله العلماء على مختلف اختصاصاتهم، وتوصلوا إلى نتائج متفاوتة، وهو موضوع أصل الإنسان.

كانت معلوماتي الأولى دينية بحتة، وكانت قضية الإنسان ونشأته من البدهيات الأولى التي تلقيتها من الحياة، كما تلقاها كل الناس في محيطي، أمر فطري لا يحتاج للتفكير.

فلا أحد يشك في أن البشر جميعهم أولاد آدم.

ومع تقدمي في سنوات الدراسة تعرفت على معلومات جديدة، وغريبة كل الغرابة ورأيت أن النظريات العلمية تتناسى آدم عليه السلام، بل وتنكره أحياناً كثيرة. ثم بعد تخصصي في الجيولوجيا اطلعت على الفرضيات العلمية المتعلقة بقضية نشأة الإنسان ابتداءً من فرضية التطور التي أطلقها داروين، ومروراً بدراسات تلاميذه وانتهاءً بالمعطيات الجديدة التي يقدمها الأنتروبولوجيون (علماء أصل الانسان) كل يوم هنا وهناك. وكان لا بد من إجراء تقابل بين الجانب العلمي والجانب الديني من هذه القضية.

فالجانب العلمي يعطي معلومات كثيرة ودقيقة، ويبرز أدلة تكاد تكون عينية وملموسة ومنطقية، فمع تقبل الاستنكار الواسع لفرضية داروين في "أصل الأنواع " يبقى تكهنهُ بوجود أشكال حيوانية تمثل حلقة الوصل بين الإنسان والرئيسيات العليا " القرديات " من الثدييات، مأخوذاً بعين الاعتبار في الوسط العلمي.

وأعيدَ النظر في قضية أصل الإنسان بعدما اكتُشفت بقايا عظمية في الكهوف أو في طبقات الأرض أبدت تشابهاً كبيراً مع عظام الإنسان الحالي، ولما كان أبعد وجود للإنسان الحالي بتقدير الأنثروبولوجيين يعود إلى 50 ألف سنة، فإن هذه البقايا العظمية المكتشفة تعود إلى مئات الآلاف من السنين، الأمر الذي أُخذ كقرينة لاعتبار هذه الأشكال المستحاثية الطلائعَ الأولى للإنسان العاقل، وحسب داورين: فإن هذه الأشكال المستحاثية متطورة عن القرديات، لذا قام العلماء بتثبيت نظرية داروين في (ظهور الإنسان) واعتبار الأصل الحيواني للإنسان، وعرض مؤلفاتهم الكثيرة التي توضح هذه النظرية وتؤكدها، ومن هذه المؤلفات:

* دراسة الإنسان، الأنتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، رالف لنتون 1945.
* طفولة الإنسان، نيكولسكي 1949.
* قصة الإنسان، كارلتون كون 1954.
* مشكلات أصل الإنسان، راغينسكي 1969.

كما تعاقبت بعثات التنقيب الأثرية في تقديم أشكال جديدة من عظام المستحاثات، ولكنها لم تعثر على هيكل عظمي كامل إلا في عام 1993 عندما قامت بعثة تنقيب أثرية بشراكة سورية يابانية باستطلاعات موسعة لوادي عفرين في الشمال الغربي من سوريا، وكشفت عن هيكل شبه كامل لطفل قدّروا أنه يعود إلى فترة ما بين 200 إلى 40 ألف سنة خلت. وبدراسة عظام هذا الطفل المستحاث وجدت فوارق عديدة بينه وبين الطفل الحالي، الأمر الذي دعا العلماء إلى اعتباره من الأشكال المستحاثة القديمة التي سبقت ظهور الإنسان العاقل، كما أكد العلماء حتمية وجود الحلقة التي تصل الإنسان بالرئيسّيات العليا.

ولكن وفي الوقت نفسه، وبإطلاع دقيقٍ على القرآن الكريم نجد أنه قد اشتمل على معارف متنوعة ودقيقة، ولكن ليس هناك أي ذكر لهذه الأشكال المستحاثية، بل هناك شرح واضح للخلق الأول (آدم) وتفصيل دقيق لكيفية خلق الجنين وانتقاله من طورٍ إلى آخر وبيان بديع عن اختلاف الإنسان وتميزه عن سائر الكائنات الأخرى، وانفصال أصله عن مكونات الحياة على الأرض، ومنهج تكليفي موجه للإنسان.

والإنسان دائماً يتميز بامتلاكه العقل وأفعاله، فلا نسمع بإنسان وحشي بلا عقل، هيكله إنساني ومضمونه حيواني.

وللتوفيق بين معطيات العلم التي تنغرس في ثقافة الجيل بقوة ومعطيات القرآن الكريم التي لا تقبل الشك والريب، قمت بعرض فصول متعددة تكشف الحقائق الموجودة عن أصل الإنسان وتضع القارئ موضع الحكم.

تبدأ هذه الفصول بعرض سريع لتطور الحياة على الكرة الأرضية، حسب المعطيات الجيولوجية التاريخية، ثم توضح مبدأ السببية الذي اتبعهُ سيُر الأحداث على الأرض.

ثم يلقي البحث الضوء على فكرة الإنسان المستحاث حسب المعطيات الأنتروبولوجية، ومجمل الأشكال المستحاثية التي استنبطها العلماء من تلك اللُقى الأثرية.

وأمام عرض هؤلاء العلماء لفكرة التشابه القائم بين الهياكل العظمية القديمة وهياكل الإنسان الحالي، ثم تشابه الإنسان مع الحيوان في كثير من صفاته الحيوية والبيولوجية لإثبات الأصل الواحد لهما تم تخصيص فصل "حجة التشابه" الذي يبين تميز الإنسان عن كل الأحياء الأرضية. والقسم الآخر من البحث يأتي مستعيناً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه الشريفة، فيشتمل على أمثلة في القرآن الكريم دليلاً على مصدره الإلهي، ثم اقتباس ما يخص بحثنا فيما يبين خلق الإنسان وأطوار تخلقه.

ثم تختتم الفصول بخاتمة فصول حياة الإنسان على الأرض، وانتقاله إلى حياة أخرى هي حياة البعث والحساب والجزاء والعقاب، والتي لا

يمكن أن تكون إلا لكائن عاقل متميز، بثَّ الله فيه من روحه فكرَّمه، ورفعه منزلةً عالية من بين سائر المخلوقات.

داعياً الله تعالى أن يوفقني في عرض الحقيقة ويجنبني الخطأ.

راجياً أن يكون هذا العمل لوجهه تعالى وابتغاء مرضاته، والله ولي التوفيق.

عماد كوسا

5-2-2004

تطور الحياة على الأرض

إذا تفكرنا في النظرية التي تقول: "لا شيء خُلق من العدم بل هناك حالة من الاستمرار والتبديل تؤدي في نهاية المطاف إلى أنّ كل مادة موجودة هي ناتجة عن مواد سابقة لها، تحولت في شروط معينة وأعطت هذه المادة" وهذا ما أطلقوا عليه مبدأ مصونيّة المادة: "المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم بل تتحول من شكل إلى آخر" وإذا عدنا بخيالنا القهقرى إلى أكثر من 4.5 مليار سنة سوف نقف في التفكر عند بدء الخلق، وبدء المادة، إذا لم تخلق من العدم فمن أين جاءت، وهل سنعود القهقرى إلى ما لا نهاية لنجري خلف من يقول: "الكون لا بداية له" ولكن كلمة (لا نهاية) في حقيقتها هي العدم، فلا أحد لمس اللانهاية لا ماديًا ولا معنويًا. ما يعني أن للكون بداية، والبداية كانت من العدم.

وتقول نظرية التطور: "إنّ المجموعات الحيوانية والنباتية قد نتجت عن بعضها البعض وبشكل طبيعي، وهكذا فإن التغيرات التي تطرأ على العالم الحي وأسبابها وانعكاساتها وتأثيراتها هي ما نسميه التطور" وبقيت هذه النظرية حتى الآن (عبارة عن نظرية لم تثبت بأدلة قطعية)

وبرزت نظريات التطور على المسرح العلمي بعد التطور الثقافي والكوني فانتشرت الآراء التطورية بوضوح في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، وقد كان لكل من بوفون وبليث وتسيمبرز وداروين ولامارك وغيرهم آراء عميقة في مسألة التطور.

فقد بدأ لامارك 1744 – 1829 بشرح عملية التطور ورأى بأن التغيرات في المتعضية تنتج عن الحاجة وعدم الحاجة للأعضاء، فالأعضاء اللازمة تنمو وتكبر والأخرى غير اللازمة تضعف وتضمر، بالإضافة إلى عامل الظروف البيئية.

أما داروين 1809 – 1882 فقد عزا عملية التطور إلى الاصطفاء الطبيعي وانتقاء الأصلح، حيث تبقى الأفراد القوية وتتكاثر بينما تموت الأفراد الضعيفة وفق تطور الظروف البيئية.

ولن نكون من أنصار أيّ الفريقين بل سفرق في مسألة التطور بين أمرين:

- الأمر الأول هو تطور المجموعات الحيوانية والنباتية عن بعضها البعض وشكل طبيعي.
- الأمر الثاني هو تطور المجموعات الحيوانية والنباتية على الأرض تماشيًا مع الظروف الحياتية للأرض.

ففي حين لم تتوفر أدلة علمية تثبت الأمر الأول، بعد أن هوت قدرة الطفرات علميًا على إحداث مثل هذه التبدلات الرهيبة التي سوف تنتج كائنات أرقى من كائنات أدرنى، فإن اللقى المستحاثية التي توفرت

بكثرة ودقة نتيجة المسوح الجيولوجية والسبر في طبقات الصخور التي تكون القشرة الأرضية تعطي قرائن واضحة على تدرج ظهر الكائنات تماشيًا مع اتجاه الأرض نحو الاستقرار، وتبين انقراض الكثير من الأنواع بعد أن صارت الظروف الحياتية غير مواتية لها.

سنلقي نظرة عامة على التطور الحيوي على الكرة الأرضية منذ النشاة وحتى الآن باعتماد المراجع الجيولوجية التي توثق ذلك التطور حسب الأحقاب الجيولوجية، متعرفين على أهم الأدوار الجيولوجية وبالتالي على أهم الكائنات الحية التي عاشت فيها، والظروف الحياتية التي توفرت في كل دور من تلك الأدوار.

يذهب العلماء إلى أن الحياة قد بدأت في الماء منذ / 3.9 / مليار سنة وأن كل شيء حيّ منشؤه الماء.
﴿**وجَعلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَي**﴾ الأنبياء (30).

وأشار " فاوكس " إلى أنّ أولى أشكال الكائنات الحية هي الأشنيات البدائية والتي أطلق عليها اسم **(الكواسيرفات)** وهي عضويات فحميّة كرويّة مسطّحة. كما اكتشفت بقايا للستروماتوليت والأشنيات الزرقاء والبكتريا اللاهوائية المرجعة فالميكروبات الأولية التي ظهرت في الماء كانت عبارة عن خلية واحدة تقوم بجميع

الوظائف الحيوية اللازمة، وكانت تتكاثر لا جنسياً بالانشطار كما اكتشفت بقايا لتلك الكائنات ممثلة بطبقات مفحمة سماكتها 1 – 2 متر تسمى فحم الشونجيت عند بحيرة أونيغا بين روسيا وفنلندا، وقدِّر عمرها بـ 1.7 إلى 1.9 مليار سنة (الأركيو زويك، حقب ما قبل الحياة).

وقد كان المناخ في هذه الفترة من عمر الأرض حاراً بشكل عام والغلاف الجوي يحوي غاز الهيدروجين والهيليوم والميتان والنشادر وبخار الماء، وكانت النشاطات البركانية هي المسؤولة عن تزايد نسبة بخار الماء في الغلاف الجوي، حيث أدى ذلك إلى تكاثفه وهطوله على شكل أمطار غزيرة جداً ربما كانت المسؤولة عن تشكل البحار والمحيطات على الكرة الأرضية.

وفي هذه الظروف القاسية نمت البكتريا اللاهوائية، وتكاثرت بسرعة مذهلة، ولا يخفى علينا أنّ منها ما يقوم بعملية التركيب الضوئي لاحتوائها على الكلوروفيل وبالتالي فقد قامت بإطلاق غاز الأوكسجين O2 للأوساط المائية مما أدى إلى ظهور بعض الأشكال الأرقى ضمن الأحياء المائية، كما ساهمت هذه البكتريا في تشكيل عنصر الآزوت N (جراثيم التأزيت)، هذا العنصر المهم جداً للحياة العضوية.

جدول الأحقاب الجيولوجية			
الحقــب	الـــــــــــدور		بـدايـة الـدور
كاينوزويك Kz	رباعي Q	هولوسين Q4	11.500 سنة
		بلايستوسين Q1-3	1.8 مليون سنة
	نيوجين N	بليوسين N2	5.3 "
		ميوسين N1	23 "
	باليوجين Pg	أوليغوسين Pg3	34 "
		ايوسين Pg2	56 "
		باليوسين Pg1	65 "
ميزوزويك Mz	كريتاسي Cr		145 "
	جوراسي J		200 "
	تریاسي T		251 "
	برمي P		299 "
	كربوني C		359 "
	ديفوني D		416 "
	سيللوري S		444 "
	أوردوفيسي O		488 "
	كمبري Cm		542 "
بروتيروزويك Pt			2.5 بليون سنة
أركيوزويك A			3.8 بليون سنة

ومع بداية الحقب الأول (الباليوزويك) الذي يتألف من ستة أدوار هي على الترتيب: الكامبري . الأوردوفيسي . السيللوري . الديفوني . الكربوني . والبرمي. تزايدت أعداد الكائنات الحية بشكل ملفت للنظر.

ففي الكامبري ظهرت الأركيوسيات وثلاثيات الفصوص وعضديات الأرجل، وهي جميعها كائنات بحرية، وخلال دوري الأوردوفيسي والسيللوري فقد ازدهرت مجموعة الحيوانات اللافقارية وتمايزت ضمنها شعاب كثيرة أهمها معائيات الجوف (ممثلة بالمرجانيات الرباعية، الصفائحيات . الستروما توليت) والطحلبيات وشوكيات الجلد.

وتمكنت المرجانيات الرباعية من تشييد أرصفة مرجانية في بحار هذين الدورين، كما ظهرت الغرابتوليت والأسماك الغضروفية والمدرعة، وظهرت مفصليات الأرجل الكبيرة مثل " جيفانتوسيراس " وكل هذه الكائنات تعيش في الأوساط المائية التي توفر فيها الأوكسجين.

Fossilized Trilobites

أمّا على القارة فقد استمرت البراكين تطلق في الجو كميات كبيرة من بخار الماء وغاز ثاني أوكسيد الكربون، ومع توفر كميات ضئيلة من الأوكسجين استطاعت بعض النباتات أن تظهر [1] وتقوم بعملية التركيب الضوئي وتنتج الأوكسجين؟

ففي نهاية دور السيللوري ظهرت النباتات الأرضية ممثلة بخفيات الالقاح الأولى والوعائية وتنتشر بشكل واسع حتى تكاد تغزو سطح الأرض وتشكل الغابات في دور الكربوني ومع هذا الازدياد الواسع للنباتات الخضراء فقد ازدادت نسبة الأوكسجين في الجو وبدأت تسمح لانتقال الحياة الحيوانية من المحيط إلى القارة، فخرجت

[1] أستخدم كلمة: (تظهر) نقلًا عن المصادر العلمية الجيولوجية

الحيوانات من الماء ومارست حياة برمائية كما فعلت الضفادع والزواحف وأخذت بالتكاثر والنمو حتى تمكنت الأوساط القارية من استقبال مختلف أشكال الكائنات الحيوانية.

وقد ترافق هذا التحول الكبير في العالم العضوي مع تغيرات هامة في تركيب الغلاف الحيوي حيث انخفضت نسبة الغازات النادرة أمام ازدياد نسبة الأوكسجين وغاز ثاني أوكسيد الكربون، وغاز ثاني أوكسيد الكربون CO_2 له خصائص هامة جداً للحياة، فهو غاز ثقيل لا يتطاير، بل يبقى قريباً من سطح الأرض ولا ينفصل إلى كربون وأوكسجين إلا بصعوبة بالغة، كما أنه يمنع حرارة الأرض من التشتت إلى خارج الغلاف الجوي، فهو يشكل مادة عازلة في هذا الشأن، ولهذا فإن زيادته في الهواء من شأنها أن ترفع درجة الحرارة كما أن انخفاض نسبته في الهواء دون الحد المطلوب يؤدي إلى تشتت وإشعاع كبيرين لحرارة الغلاف الجوي وبالتالي إلى انخفاض درجة الحرارة فوق سطح الأرض.

وتعتمد حياة كل النباتات على غاز ثاني أوكسيد الكربون، ويمكن القول بأنها تتنفس هذا الغاز وفق عملية التركيب الضوئي؛ حيث يقوم النبات بتفكيك هذا الغاز إلى كربون وأوكسجين فيلفظ الأوكسجين ويحتفظ بالكربون الذي يتّحد مع هيدروجين الماء الذي يستمده النبات عبر جذوره من التربة، وهكذا تتشكل المواد التي تدعى " النسغ

الكامل" والتي تشكل غذاء النبات والمواد الادخارية فيه، فيتشكل السكر والسيللوز والفواكه والأزهار.

ولا يخفى دور الآزوت في حياة النبات وهو غاز جامد، نسبته في الهواء 78 % وله دورٌ في تشكيل الطبقة الواقية من الهواء.

وحتى تنمو النباتات كان لا بدّ من هبوط النتروجين إلى التربة، والعواصف الرعدية ووميض البرق تؤدي إلى توحيد الأوكسيجن والنتروجين الذي يسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب.

يرتبط النتروجين مع الأكسجين ليشكلا أكسيد النيتريك

$$O_2 + N_2 \rightarrow 2\,NO$$

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ النحل (65).

أما الأوكسجين فقد كان موجوداً في الغلاف الجوي قبل أن تقوم النباتات بإنتاجه لأنه لم يُمتص بأكمله من قِبل القشرة الأرضية، وثبتت نسبته عند الرقم 21 % بشكل ملفت للنظر، فلا يجوز لها أن تتبدل في الزيادة والنقصان، وإلا فسوف تنتهي الحياة على الأرض والمسؤول عن هذا الثبات هو الإنتاج المستمر للأوكسجين من قبل النباتات، والاستهلاك المستمر له من قبل الكائنات الحية بأكملها والزيادة منه تمتصها القشرة الأرضية.

إذاً فإن ظهور الحيوانات التي تستنشق الأوكسجين قد تأخر انتظاراً لنمو النباتات وكانت أولى أشكال الكائنات الحيوانية الهوائية هي الأسماك البرمائية ذات الأطراف الزوجية، وهي الأجداد الأولى للفقاريات رباعيات الأرجل، التي تسبق الضفدعيات والحشرات عديمة الأجنحة.

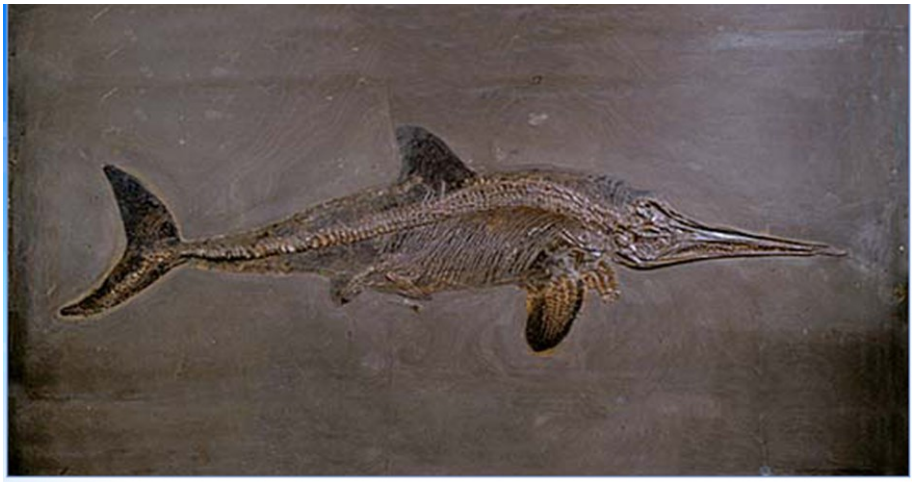

Fossilized Ichthyosaur

وفي دور الكربوني تتطور النباتات بشكل سريع، وتسمح الشروط المناخية بتشكيل نباتات ذات نمو مستمر، دون توقف موسمي، ونباتات الليكوبيدات كانت عبارة عن أشجار يبلغ طولها ثلاثين متراً، قد أعطت أكثر من أربعة أخماس الفحم في فرنسا، وإلى جانبها تطورت سريعاً أشجار السيكادا والكوردان والصنوبريات،

Carbonized Leaf

وبمحاذاة هذا التطور النباتي فقد تنفسّت الحيوانات هواء الجو وأخذت تظهر القشريات الدنيا والحشرات ذات القد الكبير. واستمر هذا التطور خلال دور البرمي لينتهي الحقب الأول –الباليوزويك – بظهور مجموعة رأسيات الأرجل (السيراتيت) وانقراض ثلاثيات الفصوص، والفوزولينا والمرجانيات الرباعية، الصفائحيات من معائيات الجوف.

في هذه الأثناء تمايزت الأرض إلى قارتين كبيرتين: لوراسيا في الشمال وغوندوانا في الجنوب، وتميزتا بمناخ حار نسبياً.

أما الحقب الثاني (الميزوزويك) فيبدأ منذ حوالي 200مليون سنة بخواص عض

وية تميز هذه البداية، مثل ظهور الأمونيات والبلمنيات من رأسيات الأرجل وظهور المرجانيات السداسية والديناصورات والحشرات ذات التحول الكامل، ثم ظهور الثدييات الأولى.

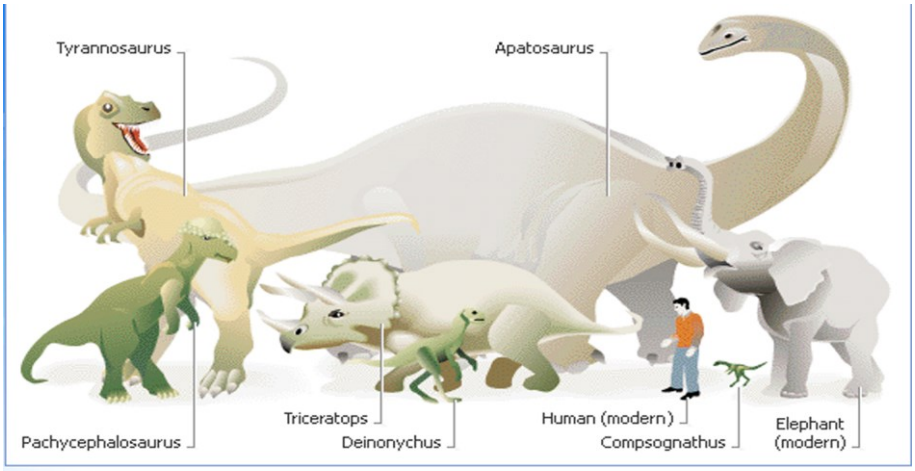

Dinosaur Shapes and Sizes

.

يتألف هذا الحقب من ثلاثة أدوار هي الترياسي والجوراسي والكريتاسي وتميزت هذه الأدوار بانتشار وتنوع الكائنات الحية على نطاق واسع.

فقد تراجعت الأشنيات الكلسية على حساب تقدم الأشنيات الحمراء، وبلغت السراخس أوج ازدهارها، بينما تركت بعض النباتات طابعاً خاصاً مثل الصنوبريات والسيكادا كما ظهرت الكائنات التي كان لها دور أساسي في تشكيل صخور عضوية هامة وتشكيلات نفطية مثل المنخربات، وازدهرت الاسنفجيات وزنابق البحر وشوكيات الجلد، والزواحف بدأت تأخذ أشكالاً ضخمة مثل " الديناصورات" و " الأكينوصورات" و "البتروصورات" التي تكيفت للطيران وتقاسمت الفضاء مع الطائر الشهير "أركيوبتريكس".

Pterosaur

وفي أعلى الحقب الثاني ظهرت النباتات مغلفات البذور، ثنائية الفلقة كأشجار الغار والصفصاف والسنديان، كما ظهرت الجريبات الأولى.

وتميزت نهاية الحقب الثاني وبالتالي بداية الحقب الثالث بخصائص عضوية أيضاً نذكر منها، انقراض الزواحف العملاقة كالديناضورات وأمثالها وانقراض الأمونيات والبلمنيات والروديست، بينما استمرت الرتب التي نراها حالياً " السلاحف، الأفاعي، الضب" من الزواحف. واكتملت مع نهاية هذا الحقب جميع الصفوف الحيوانية والنباتية.

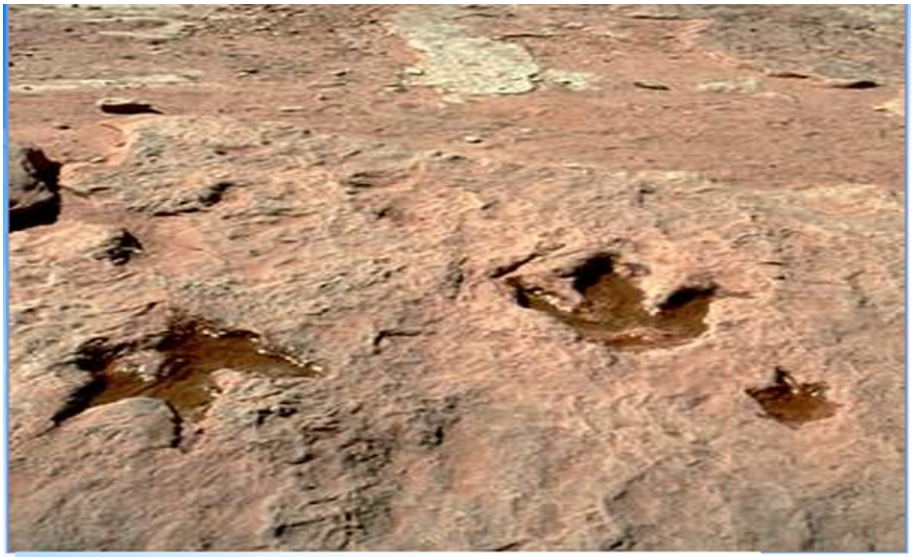

Dinosaur Footprints

وبقي المناخ حاراً بشكل عام.

يبدأ الحقب الثالث (الكاينوزويك) منذ 65 مليون سنة بعد اختفاء الديناصورات والأمونيات، وأهم ما يميز هذا الحقب هو ازدهار الثدييات وظهور النموليت، كما ازدهرت الحشرات وانتشرت انتشاراً واسعاً بسبب توفر النباتات الزهرية وغبار الطلع، كما ظهر في

الأقسام العلوية من هذا الحقب الفيل القديم والحيوانات اللاحمة والخيول، كما ظهرت القردة العليا –الشامبانزي–وأهم ما في الأمر هنا هو اعتبار ظهور أشكال حيوانية راقية شبهها الأنتروبولوجيون بالإنسان وأطلقوا عليها أسماء عديدة سنراها لاحقاً.

ومن المؤكد أن هذا الانتشار الكبير للأحياء قد نتج عن تنوع المناخات واستقرار الظروف البيئية، فقد توزعت المناخات وفق نطاقات مسايرة بشكل دقيق لخطوط العرض، لكنها لم تكن قد أخذت وضعها الحالي.

ومع نهاية الحقب الثالث وبداية الدور الرباعي تبدأ المراحل الجليدية، وتقلبات المناخ واستقرار الظروف الجوية، وتنوعت بالتالي كافة أشكال النباتات والحيوانات، وفقاً للمناطق الباردة والمعتدلة والحارة.

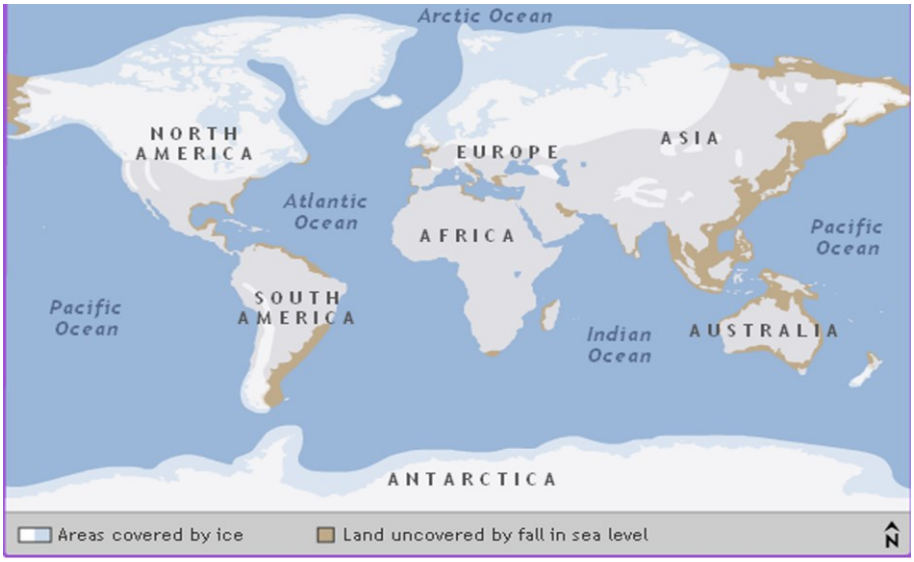

Earth During the Ice Age

فقد ظهرت في المناخ البارد نباتات التوندرا وبعض الشجيرات، أما في المناخ المعتدل فقد ظهرت السهوب العشبية التي تتدرج باتجاه الجنوب إلى غابات الصنوبر والأشجار دائمة الخضرة، وهي كلها تشير إلى مناخ متوسطي معتدل، وتوفر الظروف الملائمة لجميع أشكال الحياة ونستطيع القول إنه في الدور الراباعي (2 مليون سنة) قد ظهرت كل أشكال الحياة النباتية والحيوانية وبدأت الأرض تبدو عامرة بالحياة، وربما كانت تنتظر الكائن السيد الذي سيدير الأمور على البسيطة، ويسخر جزءًا كبيرًا من تلك الأحياء لنفسه يستفيد منها في أموره الحياتية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة (29).

كان هذا عرضًا موجزًا لتسلسل الأحداث الكبرى وظهور الكائنات الحيوانية والنباتية على الأرض دون الإشارة إلى فرضيات تطور الأنواع من بعضها البعض، ونرى الارتباط الوثيق بين الصعود في السلم الحيوي في عالمي النبات والحيوان وبين سلم استقرار الظروف المناخية والحياتية العامة على الأرض. ما يجعلنا نسلم بالسببية التي تجعل لكل حادث مسببًا.

السّببيّة

قانون السببية هو أحد قوانين العقل وصيغته: "لكل تغير سبب يؤدي إلى حدوثه" أي "لكل حادثة سبب يفسر حدوثها"، ويقول (لينز): لا يحدث شيء دون أن تكون له علّة، أو على الأقل سبب يحدده، ويتخذ مبدأ السببية صورة أعم حين يتحول إلى مبدأ الحتمية، والذي مفاده: إنّ الأسباب ذاتها في الظروف ذاتها تؤدي إلى النتائج ذاتها. وتخضع لمبدأ السببية كل العلوم التي تدرس الظواهر الطبيعية المحيطة بالإنسان.

والحوادث الطبيعية التي أدت خلال الأحقاب الجيولوجية إلى استقرار الأرض قد مرّت عبر سلسلة منطقية ومتكاملة، وكلُّ حادثة كان لها سببٌ، كما أدّت هي ذاتها إلى حادثةٍ أخرى، وهكذا، وعبر حلقات متصلة تكونت الحقيقة الكلية، ومن هذه الحوادث الطبيعية تشكيل الغلاف الجوي للأرض.

فقد تضافرت عمليات كثيرة واستمرت وتوالت في تغيير أغلفة الأرض الأربعة:

- الأتموسفير "الغلاف الجوي"
- البيوسفير "الغلاف الحيوي"

- الليثوسفير "الغلاق الصخري"
- الهيدروسفير "العلاف المائي"

واستطاعت تلك العمليات باستمرار أن تحفظ الغازات المطلوبة في الغلاف الجوي وتبقيها عند نسبة محددة، وأن تصنع الطريق للأحياء نحو الرقي والتطور، وتجعل من أكداس الصخور سجلات تخزن آثار الماضي، وترفع من نسبة المياه في الأرض لتشغل أكثر من ثلثي حجمها، وامتلكت الأرض تلك الشروط التي سمحت بالحياة عليها، بينما لم تمتلكها بقية الكواكب حتى الآن . على حد المعلومات المتوفرة ـ ونحن بدورنا اكتشفنا القوانين والسنن الكونية، وعلينا أن نعترف بوجود من خلق تلك القوانين والسنن.

وإذا كانت البداية الفعلية للحياة على الأرض تعود إلى 3.9 مليار سنة فإن هذا الرقم سيكون خيالياً، أو أسطورياً بالنسبة لنا، فالإنسان يقيس العمليات الطبيعية بعمره، وعمره يتراوح حول معدل متغير، ربما لا يتجاوز الستين عاماً وأمام هذه المليارات من السنين تطرح الكثير من الأسئلة:

- لماذا كلُّ هذه الدهور والأحقاب الطويلة التي سبقت حياة الإنسان إذا كانت غاية الخلق كلها هي الإنسان؟
- لماذا خلق اللهُ تعالى هذا الكون الفسيح الذي لا تحدّه نهاية، ولا تبدأه بداية، إذا كانت الأرض هي المخصوصة بالحياة، دون سائر الكواكب؟

- لماذا لم يختصر الله تعالى –وهو الخالق لهذا الكون–تلك الملايين من السنين ويخلق الأرض ببهرجها وزينتها **جاهزةً** من حيث كل ظروفها وخصائصها لاستقبال حياة النبات والحيوان من أدنى الرتب إلى أكثرها تعقيداً؟
- لماذا لم يختصر هذا الكون الفسيح إلى أرض وشمس وقمر، إذا كانت هذه الأجسام الكونية هي وحدها المخصوصة بالحياة؟

وللإجابة على مثل هذه التساؤلات، ينبغي على الإنسان أن يدرك ذلك العطاء اللامتناهي للرب، وينظر إلى نفسه بمنظار السخرية والهزؤ أمام ما يطبقه من التكليف.

كلّه من أجلك أيها الإنسان، هذه الأرض كلها لك، تعمرها كيفما تشاء. وهذه الشمس في قبة السماء من أجل أن تمنحك الدفء والنور، وذلك القمر السابح حول الأرض، من أجل أن يرشدك في الظلام، ويعلمك عدد السنين والحساب. وهذه الأجرام السماوية التي يبحث العلماء عن حدودها، لتدلك على مفهوم الآية التي تقول: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ الذاريات (47).

وتدرك أن كلّ شيء خلق بقدر، بنظام هندسي فائق الدقة، لا يمكنك اختصار شيء منه، زمانيًا أو مكانيًا.

ثم لتكتشف عظمة الخالق ويتبين لك أنّه الحق، فتخرَّ له ساجداً، وتمتثل للتكليف.

﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ فصلت (53).

وتدرك معنى الآية القرآنية: ﴿**إنّما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ لهُ كن فيكون، فسبحان الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليهِ تُرجعون**﴾ يس (82 . 83).

أجل إننا قد نحكم للوهلة الأولى أنّ مليارات الكواكب في الفضاء الواسع لا لزوم لها أو أنها لن تنفعنا في شيء . نحن البشر، حكمًا قاصرًا طبعًا، وليس حكمًا علميًا.

وقد نحكم أيضاً أنّ مرور الأرض بكل تلك العمليات البطيئة جداً، خلال ملايين السنين كان أمراً لا داعي له، بعقل لا يتدبر.

لكن لماذا لا نتذكر أيضاً وللوهلة الأولى قوله تعالى:

﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ الإسراء (85).

وفي كل لحظة ينطق لسان حال الإنسان بهذه الآية، لتتجلى له عظمة علم الخالق وحكمته.

إنّ هناك حكمة ربانية تتجلى في كل عملية، مهما كانت دقيقة، وإنه تعالى يريد أن يرينا من آياته الكبرى، واحدة تلو الأخرى، لتمسح الغشاوة عن قلوبنا.

وما كان ذلك التسلسل المنطقي والتدرج المرحلي الذي مرّت به الأرض إلا آيةً من آياته الكبرى كشفها لعباده على مراحل.

وإنه –جلَّ شأنه– على علمٍ مسبق وهو العليم أنّ قوماً من بني آدم سيبحثون في نشأة الكون والحوادث الطبيعية والتاريخية التي كوّنت الأرض، معتمدين على الأدلة المادية البحتة، ومن ثَمَّ على الافتراضات النظرية والتوهمية. وفي القرن العشرين بدأ البحث الجدّي في مناقشة أصل الكون، ونشأة الأرض وعمرها وتكوّن السماء، وعناصرها البدائية، ووضعت فرضيات عديدة لاتزال تدرس في شتى ميادين العلم، ومنها فرضيات تشكل المجموعة الشمسية.

مثل (الفرضية السديمية) ومفادها أنّ السماء امتلأت بغبار كوني، مجهول المصدر، اجتمعت ذراته حول بعضها البعض وشكلت الكواكب.

وفرضية الإنفجار الكبير The big bang theory التي تدعم نشأة الكون من شرارة أولى، وأن الكون له بداية، كما ستكون له نهاية.

وجدلاً لو أنّ الله تعالى خلق الأرض جاهزةً من بدء تكوينها، عامرةً بالحياة للوهلة الأولى لوقف العالم المادي اليوم ليسأل عن الأسباب والمسببات.

وإنّ غياب المسببات مشكلة، فكلُّ حادثةٍ يجب أن يكون لها سبب.

- وجود الأوكسجين له سبب.
- توفر الماء له سبب.
- انخفاض الحرارة له سبب.
- هدوء العمليات التكتونية (البراكين والزلازل) لها سبب.

- طبقة الأوزون لها سبب.

يجد العالِم الماديُّ اليوم حبكاً في هذا الخلق العظيم لا يستطيع له نقباً.

﴿**ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾ آل عمران (190).

حينما نسمع بأسرار هذا الكون لا بدَّ أن نشعر بقشعريرة، ولو سريعة، تعبر جسدنا تنبهنا بضرورة الخشوع والخوف والتذلل لخالق الأكوان.

كلُّ الأسباب محكمة الترابط فيما بينها، وكلُّ الدراسات المستمرة تعطي أدلة على ذلك. فقد استطاع علماء الجيولوجيا من خلال دراسة الصخور وما تحتويه من مستحاثات أن يعطوا فكرة جيدة عن تطور الظروف العامة على الأرض، وترابط الأسباب التي أدت إلى تطور الحياة فيها.

واكتشفوا أنّ الحياة الأولى بدأت في الماء، بشكل كائنات دقيقة جداً، من وحيدات الخلايا، تقوم بمجمل الوظائف الحيوية والفيزيولوجية.

أطلقوا عليها اسم (الميكروب)

وقد وقف هذا الميكروب موقفاً حازماً أمام العلماء الذين تساءلوا عن كيفية ديمومة الحياة اعتباراً من كائنات مجهرية.

إذا عجزت الديناصورات عن البقاء، فكيف تمكن الميكروب من إثبات وجوده ومقاومة أحلك الظروف وأقساها، والبقاء حياً إلى يومنا هذا.

ربما تكون معجزة، لكن المعجزة دوماً تتجلى في الحقيقة، والميكروب حقيقة فهو معجزة.

الميكروب لا يعرف الموت كما عرفته الديناصورات، وكما عرفته سائر الكائنات المنقرضة والباقية.

ولكن الميكروب كان ينمو ويكبر، وعندما يبلغ غاية النضج، ينقسم بالانشطار، وكل قسم لديه القدرة على النمو منفرداً، ثم الانقسام مجدداً إلى ميكروبات جديدة وهكذا. فالميكروب ينقسم إلى أعداد خيالية خلال ساعات.

فلن تنطفئ الحياة بشيخوخة الميكروب وموته، ولم يقدر الموت على الميكروب إلا بحوادث خارجية طارئة، كجفاف المستنقع والصواعق المحرقة، أو غيرها من الكوارث الطبيعية، أما أن يموت الميكروب، رغم توفر الطعام ورخاء الظروف، فهذا أمر لم يكن.

البداية كما نرى، قانونية محكمة، فالاستمرار يحتاج إلى توالد وتكاثر وتنح للموت ومع تقدم الزمن وظهور الكائنات الأرقى، ظهرت الخلايا الجنسية المعقدة والمتخصصة في التكاثر، ونقل الحياة من جيل إلى آخر.

كلّ شيء له مسبب، الاستمرارية الأولى لها مسبب، الميكروبات تتجدد ولا تموت الخطوات البطيئة، والسنون المتلاحقة، تصنع الأسباب للآتي.

ثم اكتشف العلماء أنّ النباتات الأرضية قد ظهرت في نهاية الجزء الأول من الحقب الأول (نهاية دور السيللوري)، وكانت نتيجة طبيعية لتوالي النشاطات البركانية التي أعطت غاز CO_2 الباعث على الحياة النباتية. وخلال عملية التركيب الضوئي تم تشكيل الأوكسجين بنسبته الثابتة، وصار للهواء كثافة محددة تحمي الأرض من الشهب.

كما تدخّل النتروجين في أسباب تطور الحياة، وهو عنصر لا يستغني عنه الإنسان فهو يخفف الأوكسجين، ويدخل في غذاء الإنسان، ولو كانت كميته أقل أو أكثر مما هو عليه، لما أمكن بقاء الإنسان إلى عهده الحالي.

﴿**وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ النحل (18)

إذاً لقد كان للعهد الطويل الذي مرّت به الأرض، دورٌ أي دور، فكل عملية يجب أن تأخذ دورها مهما كانت بطيئة، ومهما استغرقت من زمن، تطبيقاً لقانون السببية والذي وضع استنباطاً من منطقية تتابع الظواهر الطبيعية. وهكذا، فلم يكتشف العلماء حادثة بلا سبب، وإذا لم يكتشفوا السبب فإنهم مستمرون في البحث عنه دون البت في عدم وجوده.

لقد عرف العلماء كلَّ المراحل التي مرت بها الأرض، وعرفوا أنَّ كل مرحلة كانت تلائم نوعاً من الكائنات حسب الظروف المتوفرة،

فالحقب الأول لم يكن يسمح قط بظهور الثدييات كما أن الحقب الثالث لم يكن يسمح ببقاء الديناصورات.

فالقضية هي قضية تلاؤم بيئي، والأرض تسير عبر تلك المراحل لتصل إلى شكلها الملائم لظهور الإنسان، والأرض تُعدُّ نفسها عبر ملايين السنين لهذه الغاية، ولا ندري بالضبط متى أخذت الأرض زخرفها وازّينت للإنسان، لكننا نعلم أن الإنسان كان وما زال كائناً ضعيفاً في مواجهة الطبيعة، وكان ظهوره يحتاج إلى ضبط دقيق لكل الظروف البيئية، فتقف نسبة الأوكسجين عند الرقم 21%، والأزوت عند الرقم 78%، وتميل الحرارة إلى الاعتدال، تتشكل المحيطات والقارات، تختلف المناخات حسب خطوط العرض، وتهدأ الحركات التكوينية (الزلازل، البراكين، الانزياحات)

ويستمر التطور الحيوي على الأرض، وتظهر أنواع راقية من الرئيسيات العليا.

واعتبر داروين في كتابه "أصل الأنواع" أن الأنواع الحيوانية والنباتية قد نتجت عن بعضها البعض وبشكل طبيعي ارتباطاً مع تطور الظروف البيئية على الأرض ولن نناقش هذه الفرضية غير المثبتة في الأوساط العلمية، لكننا نعرض هنا تبعاتها فقط.

فقد تعرض لها أتباع داروين، وشرحوها شروحات مختلفة، نذكر منها ما وافق عليه جمع كبير من علماء الأحياء من تأكيد نشوء الإنسان من أرقي نوع حيواني انتهت به سلسلة التطور قبله، استناداً إلى

فرضية داروين، وقد نوّه داروين إلى أنّ (غياب بعض الحلقات في هذه السلسلة التطورية الكبيرة لا يعتبر حجة على مذهبه، إذ إن يد الإنسان لم تعثر بعد على الكثير من المجموعات الحيوانية والنباتية التي انطمرت تحت طبقات الصخور).

ولما عثر الأنتروبولوجيون فيما بعد على لُقى مستحاثية تمثل عظاماً متفرقة لهياكل حيوانية مجهولة، قارنوها بهياكل الرئيسيات العليا، كما قارنوها بهياكل البشر، فوجدوا فيها بعض الشبه لهياكل البشر، وسرعان ما اعتبروها الحلقة المفقودة التي لم يعثر عليها داروين وتلامذته، والتي تربط الإنسان بالقردة.

لقد انطلقوا من فرضية مشبوهة، وتوصلوا إلى نتائج أقرّوها بسرعة.

وإذا قبلنا فرضية التطور الحيوي وتوالي ظهور الحيوانات والنباتات بدءًا من كائنات وحيدة الخلية باتجاه أكثرها تعقيداً، فلأن ذلك يشير إلى تطور الظروف البيئية على الأرض، وإلى أن هذه الظروف لم تخلق جاهزة. كما لا تثبت تطور الأحياء عن بعضها البعض، بل تذكر الأنواع التي ظهرت في كل حقب، بغض النظر عن الكيفية.

ووفقاً لعملية التسلسل المنطقي، وتحت مبدأ السببية، وتماشيًا مع ظهور الأنواع الأرقى في السلسلة الحيوية توافقًا مع استقرار الظروف البيئية الحياتية نرى أنه يمكن أن تظهر حيوانات راقية أعلى مرتبة من الرئيسيات العليا تعايشت مع الظروف المستقرة والمتطورة،

وأعطى وجودها قرينةً على استقرار كبير للظروف الحياتية وملاءمتها لدرجة كبيرة لظهور الإنسان.

هذه الكائنات التي أشير إليها لاحقًا على أنها (الإنسان المستحاث) كانت في مرتبة راقية ضمن السلسلة الحيوانية لدرجة أنّ بعضها كانت تمشي منتصبة، وتستعمل بعض الأدوات.

إنّ تأكيد وجود مثل هذه الكائنات في أعلى السلم الحيوي لهو آية استقرار الأرض وتزينها بالشكل الكامل الجاهز لاستقبال الإنسان، وكأنها جاءت لتقوم باختبار ظروف الأرض من أجل الإنسان، وتكون حدثًا إضافيًا دقيقًا ضمن سلسلة السببية.

لكن، ما هي قصة هذه الكائنات الغريبة التي لعبت دور الحلقة الأخيرة في سلم تطور الحياة على الأرض، حسب نظرية التطور، والتي أثارت في العقود الأخيرة مشكلة أصل الإنسان ومنشأه؟

لقد أطلق الأنتروبولوجيون –علماء أصل الإنسان – على الكائنات التي ظهرت في أواخر الحقب الثالث، واستمرت خلال الدور الرباعي، اسم " الإنسان المستحاث " معتبرين أنها كانت الشكل البدائي للإنسان العاقل. ولكي يؤكدوا فرضية داروين فقد اعتبروها صلة الوصل بين الإنسان العاقل والشامبانزي.

فما هي حقيقة الأمر؟

الإنسان المستحاث

هذه التسمية الجدلية التي يسعى البحث إلى تشريحها وإعادة فهمها وردت في كافة الدراسات الأنثروبولوجية المتعلقة بأصل الإنسان، فعندما ألقى داروين بكتابه الثاني "ظهور الإنسان " بين يدي قُرّائه، وقد أخذ فيه الخطوة الجدّية بطرحِهِ نظريته المتحمسة حول ظهور الإنسان، فإن الملأ من حوله أخذتهم الدهشة، وانطلقت عفويةً عبارات التسفيه والسخرية:

" انحدرنا من قرود! يا إلهي! إنا لنأمل ألا يكون ذلك صحيحاً، وإذا ثبت هذا فلندع الله ألا يعرف الجميع ذلك ".

" إنّ هذا جهلٌ مطبق، فإنّ أسلاف الإنسان لا يمكن أن يكونوا قد انحدروا من حيوانات معاصرة لنا ".

لكن داروين حينما تحدث عن أسلاف الإنسان، فإنه لم يكن على دراية بالأمر، وما كانت قوانينهُ إلا افتراضاتٍ نظرية، وتخمينياتٍ بحتة، ولم تكن لديه أيّ أدلة مادية تثبت مذهبه، فلم يكن الأنتروبولوجيون (علماء أصل الانسان) قد عثروا بعد على عظام "الإنسان المستحاث " غير أنّه أكّد الأصل الحيواني للبشر، ووجود حلقة مفقودة سبقت ظهور الإنسان تربطهُ بأحفاده القرود.

وفيما بعد عُثر على لُقى مستحاثية في مناطق شتى من العالم، إما ضمن ركاميات أو داخل كهوف قديمة، سميت بأسماء متنوعة، وسرعان ما اعتبرها الأنثروبولوجيون الحلقة المفقودة، وأعادوا بذلك طرح نظرية الأصل الحيواني للبشر.

اكتشفت هذه العظام بادئ ذي بدء في وادي نهر النياندرتال شرقي دوسيلدورف بألمانيا، وتوالت بعدها الاكتشافات في مناطق عدة من فرنسا وبلجيكا واسبانيا وروديسيا والترانسفال وفلسطين وسوريا، وأمام كثرة هذه المستحاثات واختلافاتها النوعية، فقد قاموا بتقسيم تاريخ الإنسان المستحاث إلى فترات مختلفة، وأطلقوا على كل فترة اسم "حضارة " وكل حضارة ميزت نوعاً من المستحاثات مع التحفظ الشديد على مصطلح (حضارة) الذي يأخذ منحى إنساني ابتكاري وثقافي غزير وهو ما كان منعدمًا فيما يلي:

1 – الناس الأوائل:

أطلق عليها أيضًا اسم "حضارة الأفهار" وقد ذهبوا إلى أنّ من أشادها هو الإنسان الأسترالي (قرد الجنوب المنتصب) في الدور الرباعي القديم (سيسليان)، وقد امتدت في الفترة ما بين 2 مليون سنة وحتى 500 ألف سنة خلت.

وعُثر على بقايا مستحاثات هذه الفترة في مناطق متفرقة من العالم، في جنوب شرق أفريقيا (حوالي 65 مستحاثة)، وجنوب شرق أسيا، وجنوب غرب أسيا في غور نهر الأردن عام 1961.

وافتُرض أن هذا الكائن كان يمشي على طرفيه الخلفيتين بشكل شبه منتصب، وكانت عظمة فخذه لا تختلف عن نظيرتها في الإنسان الحالي، كما أن حجم مخه كان أكبر من حجم مخ الإنسان الحالي، أما البيئة التي عاش فيها، فهي صحراوية جافة، جعلته يستخدم الأدوات الحجرية والعظمية والخشبية.

ويرى بعض الباحثين أن هذا الكائن قد اقترب من مرحلة استخدام المواد الطبيعية كأدوات للاستعمال، ويرى الباحث (ن. توبايس) أنه لا توجد أدلة واضحة تشير إلى خروج هذا الكائن من طور استعمال الأدوات الطبيعية، دون إحداث أي تحسينات عليها.

أما النواحي التي اختلف بها عن الإنسان الحالي فهي كثيرة، منها شكل الجمجمة، فقد كانت كبيرة، لها سقف طويل ومستوٍ، وعظمة الجبهة حافة مستطيلة متصلة فوق العيون تشبه ما في الشامبانزي والجيبون، والفك السفلي لا ذقن له، أما التسنين فيختلط من صفات تسنين جمجمة الإنسان، وجماجم القردة العليا.

2 – الناس القدماء:

أطلق عليها اسم (العصر الحجري القديم) وهي الفترة الأشيلية والأبفيليانية، والتي اعتبر أن من أشادها هو إنسان أركانو تورب منذ حوالي 200 ألف سنة خلت.

وهذه الأشكال أكثر تطوراً من الإنسان الأسترالي، اكتشفت في مناطق عدة من جاوة، والصين، وهيدلبرج، والجزائر والمغرب العربي.

تميزت هذه الأشكال بالقامة غير المنتصبة، والجبهة المنخفضة المتراجعة، كما كان لها حاجبان بشكل رفرف عظمي فوق العينين، وساحة القسم الوجهي أكبر من القسم الدماغي للجمجمة، ومقدمة الفكين ظاهرة إلى الأمام.

ولقد عثر عليه لأول مرة عام 1891 في جزيرة جاوة من قبل (دوبا) الهولندي ولم يعثر معه على أيّ أدوات بجواره، ولم يمتلك إنسان جاوة اللغة، وإنما كان يطلق أصواتاً معينة للتفاهم، كما افتقد الذاكرة والذكاء.

وفي الصين وبالقرب من العاصمة بكين في أحد الكهوف القريبة من قرية تشوجوديان عثر العالم السويدي (بير جبر) عام 1927 على عظام أخرى سماها (إنسان الصين)، وتتكون هذه البقايا من ضرس وأجزاء لفك سفلي وأجزاء أخرى لجمجمة طفل.

وفي ألمانيا، في منطقة "ماور" عُثر على إنسان هيدلبرج عام 1907.

أما في الجزائر فقد اكتشفت بقايا عظمية بالقرب من مدينة "مسكرة" عام 1954 مع أدوات حجرية ويعتقد أنه عاش في فترة تزيد عن 300 ألف سنة خلت وعثر على بقايا عظمية في جبال سيدي عبد الرحمن في مراكش بالقرب من مدينة كاسابلانكا وأطلق عليها اسم (إنسان سيدي عبد الرحمن).

ولننتبه إلى أمرين يتبادران إلى الذهن:

-الأول هو حجم هذه اللقى المستحاثية ودلالاتها، فهي لا تتجاوز بضع عظام مفككة متفرقة لا تكفي لإعطاء معلومات كافية عن طبيعة الحيوان، وطبيعة الظروف التي عاش فيها، كما لا تعطي فكرة جيدة عن أجزائه الرخوة.

- والثاني هو إطلاق تسمية "إنسان" على هذه البقايا العظمية، وإنها تسمية متسرعة يجب أن تنال حيزاً واسعاً من التمحيص، نظراً لما لها من دلالات عميقة.

3 - **إنسان نياندرتال:**

فترة العصر الحجري المتوسط، وهي (حضارة الليفالوزية . مويسترية)، والتي برز فيها الإنسان النياندرتالي ما بين 150 ألف سنة وحتى 30 ألف سنة خلت.

وقد عاصرت هذه الكائنات الفترتين الجليديتين: الريس، والفيورم، وكان قد عثر على بقايا لجمجمة غير كاملة لأنثى نياندرتالية لأول مرة عام 1848م في اسبانيا، واتصفت هذه الجمجمة بأن العظم الحاجبي كان ضعيف البروز الموجود فوق العينين، بمقارنته مع الرفرف الحاجبي عند الناس القدماء، كما عثر في نفس الوقت على بقايا عظمية لطفل نياندرتالي في سن الخامسة من العمر، ومن ثم عثر على بقايا عظمية في وادي نهر النياندرتال بالقرب من مدينة

دوسيلدورف بألمانيا، وسميت بإنسان نياندرتال نسبة إلى هذا المكان، بعدها توالت الاكتشافات في أماكن عدة من العالم، آسيا وأفريقيا وأوربا، وسرعان ما اعتبره العلماء طليعة الإنسان العاقل، ذلك للتشابه الذي أبدته العظام مع مثيلاتها في الإنسان الحالي.

بينما تبقى المشكلة في الاختلافات الخطيرة والتي من أهمها:

- قصر القامة عند النياندرتال.
- عظامه الضخمة العريضة.
- رأسه الكبير، وجبهته المتراجعة.
- اختفاء الذقن في فكه السفلي.
- الأسنان الكبيرة.
- الحواجب ذات الحواف القوية.
- والانحناء الشديد لجسمه.

ويذكر" أنه عاش في الكهوف، وعرف استعمال النار، وصنع الأدوات الحجرية، وكان صياداً وآكل لحوم، ومصنعاً لجلود الحيوانات، التي يحتمل أنه استعملها كملابس".

وكل هذه المعلومات لا تتجاوز حيز التخمين والتكهن عن حيوان لم يبق منه سوى بضع عظام رميم.

لقد عُثر على بقايا عظمية في روديسيا عام 1921 واعتبرت من نوع النياندرتال، وتتكون من عظام الحوض واليدين وأجزاء من عظام

العصعص وقد اعتبر العالم الروسي (نستورخ) أن نياندرتال روديسيا هو من الطلائع الأولى التي انحدر منها نياندرتال أفريقيا.

وتم العثور على البقايا العظمية لنياندرتال فلسطين ما بين عامي 1931 . 1936 م في جبال الكرمل في مغارتي: السوخول، والتابون، وقد اعتبره الباحثون مرحلة متقدمة من تطور النياندرتال.

وتركزت أماكن انتشار هذه الكائنات بشكل كثيف حول منطقة الانهدام الآسيوي الأفريقي (الفالق المشرقي) الممتدة من المحيط الهندي جنوباً، حتى سفوح طوروس شمالاً، مروراً بالبحر الأحمر والميت، وبحيرة طبريا وسهل الحولة، والبقاع والغاب ولقد وجدت في هذه المنطقة مواقع عديدة أعطت أهمية كبيرة لهذه المنطقة في دراسة علم أصل الانسان، والأبحاث الأنتروبولوجية للعصور القديمة.

وفي تاريخ 23 آب من عام 1993، عُثر على بقايا نياندرتالية في أقصى شمال شرق وادي البحر الميت، في المنطقة الانتقالية ما بين نهوض حلب وكتلة الكورداغ في كهف "الدودرية " الواقع في السفح الغربي لجبل ليلون في الشمال الغربي من سوريا، في منطقة عفرين بالقرب من قرية براد.

واعتبر هذا الموقع أضخم كهف يعود للعصر الحجري القديم تم اكتشافه حتى الآن، واستطاع الأنثروبولوجيون ضمن شراكة سورية

يابانية، اكتشاف بقايا مستحاثية في الكهف اعتبروها تعود لإنسان نياندرتالي عاش في العصر الحجري المتوسط.

وحسب الدراسة المشتركة تشكل هذه البقايا العظمية هيكلاً عظمياً لطفل نياندرتالي لا يتجاوز عمره السنتين، استناداً إلى نموذج الإنسان الأوربي، ودراسة الأسنان اللبنية.

تأتي أهمية هذه اللقى المستحاثية في أنها تكاد تكون كاملة وهي الأولى من نوعها، فباستثناء الهيكل العظمي المحطم من الناحية الوجهية، فإن كل العظام الأخرى موجودة.

وفي عامي 1997 . 1998 اكتشف قبرٌ آخر في نفس ذلك الكهف احتوى على عظام شكلت الهيكل العظمي لطفل نياندرتالي آخر، وقد كانت هذه العظام مقبورة في حفرة ضمن الرواسب الموستيرية، وعثر معه على بقايا صوانية وشظايا وعظام حيوانية.

وقُدِّر عمر الطفلين المستحاثيين بالعصر الحجري المتوسط، إلى فترة تعود إلى 200 ألف إلى 40 ألف سنة خلت، وهي فترة غير دقيقة، وتكاد تندمج مع فترة ظهور الإنسان العاقل حسب المخرجات الأنتروبولوجية.

لذا تبرز فرضية أخرى في حقيقة هذه البقايا المستحاثية، فهي ربما تكون لإنسان عاقل[2] سكن الكهوف وعرف منهج الحياة.

[2] الإنسان المستحاث غير عاقل

ولقد قام العالم الياباني (هـ إيشيدا) بجمع وتركيب عظام الجمجمة وباستخدام تقنيات جديدة متعددة توصل العلماء إلى إعادة بناء شكل الجسم والهيكل العظمي، وطريقة التنقل، وصنعوا نموذجاً من الطين لطفل النياندرتال، كان يفترض أن يكون منحنياً، بافتراض أن إنسان نياندرتال عاش منحنياً، لكن النموذج يوضح شكلاً لإنسان منتصب، معالمه وتقاسيم وجهه لا تفرق شيئاً عن الإنسان الحالي.

وعند مقارنة عظام المستحاثتين مع عظام طفل حالي، وجدت فوارق كثيرة صنفها العالم تاكيرو أكازاوا كما يلي:

- الرأس كبير
- العظام مجملة كبيرة وضخمة وخاصة عظام الساقين، عظم الأنف كبير جداً.
- الأذرع طويلة جداً.
- بروز الذقن طفيف يكاد يغيب.
- الرأس طويل وضيق، والخط الخارجي دائري عند مشاهدته من الخلف
- الخط الخارجي لتجاويف العين دائري.
- عظم العانة كبير.
- الهيكل العظمي منحني غير منتصب.

يفترض أن إنسان نياندرتال لم يدفن موتاه، فبقيت العظام معرضة للهواء بعيدة عن تأثير البكتيريا اللاهوائية، ولاذت بالكهوف التي خبأت

عظامها وحفظتها من التبعثر، ويفترض أنه عرف استخدام النار، واعتبر ذلك دليلاً أثرياً على استخدام النياندرتال للأدوات، ومعرفته بالظواهر الطبيعية وطرائق الحماية منها.

لكن هذا الدليل لا يكفي مطلقاً لإعادة بناء دراسة الثقافة لدى هذه الكائنات، وسنرى ذلك في فصل حجة التشابه ..

4 – الإنسان العاقل:

فترة العصر الحجري الحديث، برز فيها النيانوتروب، وتعود الحدود الدنيا لظهور هذا النوع حسب تقدير الباليونتولوجيين إلى حوالي 35 – 50 ألف سنة خلت، وهو مستمر حتى الآن. وقد قسمت هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام:

أورجيناسيان (أوريانسكي)، سولستيرينيان (سولترسكي) وماجديليان (مادلينسكي).

تقول إحدى نظريات ظهور الإنسان العاقل:

"إنه نتيجة الذبذبات المناخية التي حدثت في الفترة ما بين 10 – 60 ألف سنة قبل الميلاد بدأت تغيرات واضحة في العالم الحيواني والنباتي، وظهر الإنسان العاقل، ووجد نفسه مضطراً للتلاؤم مع الظروف الجديدة ".

تقول نظرية أخرى:

" إنه منذ أكثر من 35 ألف سنة، عندما كان جليد فيورم في أقصاه **أستبدل فجأة** بإنسان نياندرتال في أوربا إنسان تشبه عظامه عظامنا "..

ويضيف آخرون:

"إن هؤلاء الناس الجدد هم غزاة من خارج أوربا، جلبوا معهم ثقافة مغايرة لثقافة النياندرتال، ومنهم أناس (كرمانيون) الذين يبلغ طولهم نحو ستة أقدام، وأجسامهم رياضية، وعظامهم شبيهة بعظام الناس الذين يعيشون في شمال اسبانيا، وفي الباسك، والكابيل، والجزائر".

ولقد سمي هذا الكائن بـ (كرمانيون) نسبة للعظام التي عثر عليها في منطقة كرمانيون بفرنسا عام 1868، وأعتبر أن هذا الإنسان من العرق الأبيض الذي عاش في أوربا الغربية، وفي القسم الغربي من حوض البحر المتوسط.

تتصف هذه الأنواع بطول القامة (180 سم) وحجم الدماغ (1590) سم3 ويعتقد أنه عاش منتصباً.

كما عثر في المنطقة ما بين فرنسا وإيطاليا على بقايا عظمية لنوع آخر سمي (إنسان غريمالدي) وبقايا أخرى سميت (إنسان شانسلاد)، وغريمالدي كان يتضمن صفات أفريقية (زنجية)، أما شانسلاد فقد شابه الأسكيمو.

والآن وبعيداً عن كينونة الناس الجدد بأنواعهم المختلفة، تبقى الأسئلة عن النياندرتال:

– أين ذهب؟ وما هي الحلقة الحيوية المفقودة بين النياندرتال وبين الإنسان العاقل؟

–كيف تسنى لهذا المخلوق الخشن اللاواعي أن يمتلك العقل ويصنع الحضارة.

– وماذا بشأن الفجوة الأخطر في سجل المستحاثات التابعة للرئيسيات شبيهة الإنسان، **وهي اختفاء البقايا العظمية في طبقات البليوسين العليا.**

ثم.. متى، وأين، وكيف، ومن أي مصدر جاء الإنسان العاقل؟

- هل كانت التبدلات الوراثية هي المسؤولة عن تحول النياندرتال إلى إنسان عاقل؟ ما هي حقيقة تلك التبدلات؟

لا يعطينا علم الوراثة إلا نوعاً واحداً من التبدلات الوراثية المشاهدة عند الإنسان والتي تؤدي إلى تبدلات في الصفات الموروثة من الآباء تحت تأثيرات متعددة من المحيط وهذه التبدلات تعرف بما يسمى " **الطفرات**".

ولكن هل بمقدور الطفرات أن تحول القرد إلى نياندرتال، والنياندرتال إلى إنسان؟

لـم تعـطِ الأبحـاث الوراثيـة أيـة تأكيـدات علميـة تـذكر يمكـن أن تحسب لعمليات الطفرة، ولا أعطت الصدفة إمكانية التلاعب الدقيق في الشيفرات الوراثية.

ويمكننا القول إنه مهما كان النياندرتال شبيهاً بالإنسان، فلا يمكن للطفرات في يوم ما أن تغير من كينونة أحدهما، وكل العوامل الوراثية لن تقدر على إعطاء العقل من البهيمية.

واختلف الباحثون حول المكان الأول لظهور الإنسان، فهناك من يقول بأنه ظهر في مكان واحد وانتشر إلى أمصار الأرض، والرأي الآخر يقول إنه ظهر في أماكن متعددة من العالم، ومسيرة تطوره تمت بشكل منفصل في كل مكان، وعلى هذا فإن الإنسان الحالي قد انحدر من أصول مختلفة، ولكن الزمن بقي مجهولاً لم يتفق عليه بعد.

افتـرض الأنثروبولوجيـون أن الإنسـان العاقـل قـد انحـدر مـن النياندرتال، والنياندرتال انحدر من القرد، معتمدين على التشابه القائم ما بين الهياكل العظمية في الإنسان، ونظيرتها في الرئيسيات العليا، إضافة إلى التشابه في بعض الصفات الفيزيولوجية فيما بينهما، وراح البعض يعاتب الناس لعدم تقبلهم هذه الفرضيات:

"لماذا لا يرضون القرود أرومة لهم، أيدركون الدور الذي يشغله فوق سطح الأرض، والغاية التي اختصه الباري لها، هم يحقرون القرود ولولاه لما كانوا موجودين أصلاً، تلقاهم يرفعون عقيرتهم، ويصرخون بأعلى صوتهم: يا للعار! يا للفضيحة! وهم مع ذلك لا

يفقهون حرفاً واحداً من علم طبقات الأرض، فما صراخهم إذاً إلا لداعي خجلهم، وما تأسفهم إلا من فرط جهلهم وغباوتهم ".

أما الذين يفقهون من علم طبقات الأرض كلّ شيء، ويلمّون بحقيقة الأمر كل الإلمام فقد وقفوا بحزم أمام التكهنات، ومنهم أ. دونواي، الذي قال:

"ومن هو ذلك الجدّ الغريب، ذلك الحيوان الخشن اللاواعي، الداعر، الذي إذا ميَّز يوماً الخير من الشر، كوَّن فينا قلق الملاك وخفره ".

وآخرون تاهوا بين الفريقين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء:

" من الشائع أن الإنسان منحدر من القرود، وليس لهذا معنى دقيقًا، لأن الإنسان بلا شك غير منحدر من الحيوانات الحية التي نسميها قروداً، ولكن من المؤكد أن في خط أسلافه أشكالاً حيوانية تشبه القرود الحالية، ولو بقيت تلك الأشكال الحيوانية حتى يومنا هذا، لصنفناها بين القرود".

الدليل الأول الذي اعتمده الأنثروبولوجيون في الأصل الحيواني للبشر، واعتبار النياندرتال من أسلاف الإنسان الحالي هو ما أكده تشارلز داروين في ضرورة إيجاد الحلقات المفقودة في سلسلة التطور والتي تربط الأنواع ببعضها البعض، وتدل على أنها نتجت من بعضها البعض، وتلك فرضية يجب أن يعاد دراستها بحياد علمي مطلق، وتكون مجال بحث وتدقيق، فهل يمكن أن يكون الحصان قد نشأ من

مخلوق كان بحجم القطة، وهل يمكن أن يتحول الكلب إلى نمر والعصفورة إلى نسر؟ والأجوبة ننتظرها من علم الوراثة.

والدليل الثاني الذي عضّ عليه الأنثروبولوجيون بالنواجذ هو التشابه في الهياكل العظمية للإنسان الحالي والأشكال الحيوانية القديمة، ثم التشابه بين الإنسان والرئيسيات العليا ومنها القردة، في الكثير من الصفات البيولوجية والفيزيولوجية والتشريحية. **فما هي حقيقة هذا التشابه؟**

حجة التشابه

استخدم الأنثروبولوجيون حجّة التشابه دليلاً لفتح الطريق الموصل بين الحيوانية والإنسانية، واعتناق وتأكيد الأصل الحيواني للإنسان، فبعد اكتشاف الإنسان الأسترالي وما بحوزته من أدوات مصنوعة من الصوان، امتلك هؤلاء حجة بالغة وقفت إلى جانب تشابه عظام الحوض التي قورنت مع عظام حوض الإنسان الحالي، فقد افترضوا أن إنسان أستراليا قد مشى منتصباً، وإنّ استخدام هذا الكائن أدوات عديدة هي قرينة أخرى على التشابه ما بين الإنسان المستحاث والعاقل.

وردّاً على هذه الحجة فإن داروين نفسه قام بوصف أحد طيور جزر (جلابا جوس) الذي يستعمل أشواك الصبّار، فيمسكها في منقاره، ويستخرج بها الحشرات من شقوق لحاء الأشجار.

كما يستعمل كلب البحر في كاليفورنيا الأحجار لفتح أصداف الرخويات التي يتغذى عليها، وهناك حالات ثبت صحتها عن استعمال الأدوات من قبل الحشرات، فالزنبور المخدر يستعمل الحصى كمدقة يدق بها التربة حول فتحة جحره.

وهناك أنواع من النمل تحوك أوراق الأشجار بخيوط حريرية تنتجها يرقاتها.

فهل بعد هذا كله ندهش لأن النياندرتال أو الأنواع الأخرى من الرئيسيات العليا قد استخدمت الأدوات، ونعتبرها خطوة نحو امتلاك العقل؟

الكثير الكثير من الحيوانات على اختلاف أنواعها، تستعمل الأدوات، سواء كانت حجارة أو عيداناً، أو حتى عظاماً، فلا تزيد مسألة استخدام الأدوات من قبل الحيوان على كونها مجرد نشاط غريزي بحت تمتلكه أغلب الحيوانات.

ويمكن الافتراض أن جميع الحيوانات ترى الحقائق، والحوادث، والأشياء المادية كما هي، وأنّ رد الفعل الذهني عندها مباشر، ورد الفعل ماثل في محاولتها الاستيلاء على الغذاء، والفرار من العدو،

والاختفاء من الخطر، أو التماس الراحة في مكان آمن، ومن الممكن أنّ بعض الحيوانات التي بلغت درجة عالية من التقدم، كالكلاب مثلاً قد تحلم والحلم بالطبع هو نوع من التصور، خارج عن السيطرة عليه.

الأسماك تضع بيوضها في البحر في مكان محدد ووقت محدد، بنشاط غريزي، وتطيع قانوناً دون أن تدري ما هو.

ووجد أن أنواعاً معينة من الصراصير، تصرُّ عدة مرات في الدقيقة الواحدة طبقاً لدرجة الحرارة، وعند إحصاء عدد مرات صريرها، وجد أنها تسجل درجة الحرارة مع فارق درجتين.

وهناك أنواع من البط في قناة بأوربا كانت تأتي كل يوم بإنتظام على قنطرة وتدق جرساً أُعدّ لها.

وللطيور وقتها المحدّد للطيران نحو الجنوب أو الشمال، وكل فرد منها يقرر الانضمام إلى سربهِ، ثم تهاجر في يومٍ يكاد يكون محدّداً كلّ سنة.

كل الحيوانات –الباقية والمنقرضة– لم يثبت أنها امتلكت أيّ مظهر من مظاهر العقل، لكنها امتلكت الغريزة.

إنّ أيّ حيوان –حتى أشباه الإنسان– لم يسجل لنفسه قدرته على تربيع حجر، أو العد لغاية خمسة، أو فهم معنى خمسة.

نعم، أُتيحَ لبعضها أن تبدي درجةً عالية من أشكال الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندري، فالزنبور يصيد الجندب (النطاط) ويحفر حفرة في

الأرض، ويخز الجندب في المكان المناسب تماماً حتى يفقده وعيه، ويحفظه في مكان آمن كنوع من اللحم المحفوظ، يأكله إذا جاع.

إنّ النملة مثال آخر لتلك الغريزة العجيبة:

إنها تطبق النظرية القائلة: "أعظم خير لأكبر عدد "، فهناك نملٌ يجمع الحبوب، ونملٌ آخر يطحنها في مخزن الطحن، وعندما يكون الطعام جاهزاً ومطحوناً، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن . حيث انتهى دورها ليبقى الغذاء كافياً للجيل الجديد.

وهذه النملة قيل فيها قولٌ بليغ:

" أنظروا إلى النملةِ في صِغَر جسمها ولَطافةِ هيئتها، لا تكادُ تنالُ بلَحظِ البصر، كيف دبَّت على أرضها، وصبَّت على رزقها، تنقل الحبة إلى جُحرها وتعُدها في مستقرها، تجمع في حَرِّها لبردِها، وفي ورودها لصدرها مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديَّان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجامس"

Leafcutter Ant

وعالم النحل أيضًا له عجائبه.

إننا لن ندهش أبداً، إذا كانت الرئيسيات العليا قد استعملت الأدوات ولن نعتبرها دليلاً على كونها أسلاف الإنسان الحالي، فهناك الكثير من الحيوانات المعاصرة للإنسان تستخدم الأدوات.

لكنّ الأنثروبولوجيون اعتمدوا بالإضافة إلى هذه القرينة، صفة التشابه البيولوجي بين القردة العليا والإنسان، لاعتبار الأصل الواحد لهما، ومن هذه الصفات المتشابهة:

- مدة الحمل الواحدة لدى الاثنين والتي تتراوح بين 253 – 275 يوماً.
- وجود الدورة الشهرية (الحيض).
- عدم وجود موسم خاص للتزاوج، ومولود واحد عادة، وعناية الأم الفائقة بربيبها.

- سيادة الذكور البالغين على الإناث والصغار.
- وجود عدة أجهزة لدى الإنسان لا فائدة ظاهرة منها، والتي يمكن أن تعتبر كآثار باقية، كالجهاز الشعري، والزائدة الدودية، والانثناء نصف الهلالي للعين، وعضلات صيوان الأذن، والفقرات العجزية، والعضلات الذنبية.
- الرؤية المجسمة "رؤية الألوان"
- عدم الحركة في الأذن الخارجية .
- نقص حاسة الشم. . فقدان الشعيرات اللامسة.
- كلُّ الأجزاء الموجودة في جسم الإنسان لها نظيرها في جسم الرئيسيات العليا.

نعم، والاختلافات أكثر:

- أطفال البشر يولدون بلا حول ولا قوة، إذا ما قورنوا بنُظرائهم من رُضَّع القردة العليا.
- حجم المخ في الإنسان عند ولادته يكون 23 % من حجمه لدى البلوغ. في حين تكون هذه النسبة 50 % لدى القرود.
- تتكشف الأسنان اللبنية في الإنسان بعد فترة (7.6 – 28) شهراً بعد الولادة، وفي الشامبانزي بعد فترة (2.7 – 12.3) شهراً بعد الولادة.

- الأسنان الدائمة تظهر لدى الإنسان بعد فترة (6.2 – 9.9) سنة، أما في الشامبانزي فهي تظهر بعد فترة (2.9 – 10.2) سنة.
- يستغرق الإنسان ضعف المدة التي تستغرقها القرود العليا حتى يكتمل نمو جسمه...الخ.

ويبقى السؤال:

هل هذا التشابه البيولوجي بين الإنسان والقردة العليا هو الوحيد من نوعه في عالم الحياة الحيوانية؟

ألا تتشابه باقي الكائنات فيما بينها؟

ألا تتشابه الكائنات الأخرى مع الإنسان؟

إنّ الحديث عن تشابه الأنواع الحيوانية يطول:

- فزعانف السمكة الأربع هي نفس الأرجل الأربعة متحورة إلى ما يشبه المجاذيف.
- رقبة الزرافة على طولها لها نفس العدد من الفقرات التي تمتلكها رقبة الإنسان، والقنفذ على قصر رقبته، والحوت على ضخامة هيكله، لديهما العدد نفسه من الفقرات وهي سبعة.

فلماذا لا تكون الزرافة هي جد البشر؟ ولماذا لا ينال الحوت أو القنفذ ذلك الشرف؟

- عدد أصابع اليد والقدم لدى الإنسان خمسة، وفي القردة خمسة، وفي الفئران والسحالي خمسة، وحتى الوطاويط، يكشف التشريح لها عن خمسة أصابع ضامرة.
- القلب والدورة الدموية لها نفس النظام، في الحوت والفأر والقرد والوطواط، كلها تمتلك نفس الشرايين ولو بتحوير بسيط، والقلب له نفس العمل.
- الجهاز العصبي بأجزائه، والجهاز العضلي بعضلاته، والهيكل العظمي بعظامه، عظمة عظمة، والجهاز التناسلي، وكل هذه الأجهزة وغيرها هي ذاتها، ولها الدور ذاته في كل الأحياء التي تمتلكها، مع تحويرات بسيطة.
- مدة الحمل عند الإنسان والقردة والحيتان واحدة، وكذلك فترة الرضاعة عند الكل سنتان.

التشابه قائم بين جميع كائنات الحياة الحيوانية وإنْ دلَّ ذلك على شيء فإنه يدل على:

وحدة الخلْق ووحدانية الخالق.

لكن لقضية التشابه وجهٌ آخر:

إنّ سائر الأحياء التي عاشت وتعيش على الأرض لا يمكنها أن تشابه الإنسان، لأنه اختلف عنها، بل تميَّز عنها وسيطر عليها بما انفرد من صفات، وهي لا تعد ولا تحصى، ويكفي أن نجعل من العقل ذلك القبس الذي أنار واقع الإنسان، وميزه عن البهيمية.

إنه ليس جسداً مادياً فحسب، بل إنه كائن روحاني بالغ في التعقيد، وكل الصفات البيولوجية والفيزيولوجية التي يمتلكها الإنسان تقود إلى تمييزه وفصله عن سلسلة تطور الحياة على الأرض، "واعتبار أن تلك السلسلة الطويلة ما كانت إلا لتختبر الظروف البيئية والحياتية على الأرض حتى إذا استقرت ولاءمت حياة الإنسان الضعيف، استخلفه الخالق عليها وجعله سيدها ومدبر أمرها".

ومن الطبيعي أن يكون ذلك الاختبار غاية في الدقة، وأن تختبرها كائنات غاية الشبه بالإنسان، حتى لا تنقطع الأدلة المادية للخلق ويبقى التسلسل المنطقي، وتبقى السببية... ويبقى النظام قائماً.

فإذا ثبت أن تلك الأنواع الحيوانية، التي عثر على بقاياها العظمية المشابهة لمثيلاتها لدى الإنسان أنها لم تمتلك العقل مطلقاً، فإنه يثبت في الوقت نفسه انفصالها عن الفرع البشري، فالإنسان امتلك العقل منذ ولادته على هذه الأرض، لأن العقل لا يمكن أن يولد من البهيمية، فمهما تطور دماغ الشامبانزي، ومهما حاول المدربون

تعليمه وتدريبه على الحركات، فإنه يبقى مقلِّداً، ويقوم بتلك الحركات تحت تأثير المنعكس الشرطي، ولا يقوم بها لأنه يمتلك العقل. ويؤكد العلماء أن النياندرتال لم يمتلك العقل، وكذلك أسلافه (الناس القدماء والناس الأوائل) لذا لا يمكن تسمية هذه الأشكال بـ (أناس) أو (إنسان).

وهنا يتجلى دور هذه الكائنات التي سميت عبثاً بـ (الانسان الستحاث) في الوجود، وتتجلى الحكمة الربانية في اختيار كائنات غاية الشبه بالإنسان تتعرض للظروف البيئية للأرض حتى إذا لاءمتها كانت دليلاً على جاهزية الأرض التامة واستكمالها لكل الشروط الحياتية للإنسان، فتنتهي سلسلة التطور البيئي، ويقف النياندرتال جامداً لا يقوى على التقدم خطوةً واحدة، ولا يدوم جموده طويلاً، فسرعان ما يختفي من الوجود، ليظهر الإنسان ويسود.

وهنا تكمن الأسئلة عن العوامل التي أدّت إلى انتهاء النياندرتال ومحوه من الوجود، هل قُضي عليه من قبل الإنسان العاقل بعد ما ظهر؟

لا يحبذ العلم فكرة بقاء النياندرتال حتى ظهور الإنسان العاقل، ولا يؤيد وجودهما المتواقت على سطح الأرض.

ومن جانب آخر فإن الإنسان هو الأحدُّ ذكاءً والأكثر تعقيداً والأعمق تفكيراً من طبقات الحياة المتتابعة على الإطلاق.

ولقد خلقه الله في أحسن تعديل لصورته وشكله،
﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ التين (4).
والتقويم لا يأخذ المنحى الظاهر دون أن يشمل الجانب الخفي المستتر من كينونة هذا المخلوق العجيب.

فمهما بالغ الأنثروبولوجيون في وضع صفات التشابه بين الإنسان والأشكال الأخرى من الرئيسيات العليا، يبقى هناك جانبٌ لم يرقَ إليه حيوانٌ قط، كان الإنسان وحدَهُ صاحب هذا التقويم البديع، انفرد بشخصيته المختلفة عن سائر المخلوقات، فهو الوحيد العاقل، الذي يميز الخير من الشر، وهو الوحيد المكلَّف والمستخلف، وهو الوحيد القادر على التصوُّر والإدراك والشعور والتدبير، وهو الوحيد الذي يسأل عن الموت، وما بعد الموت.
ويدرك الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.
أمَّا أذكى القرود فلا تدرك شيئاً اسمه المستقبل.
الذاكرة بمعناها الدقيق لا يملكها سوى الإنسان، ولقد كانت نتيجة نمو الذاكرة لديه أنه استطاع اختزان الخبرات والمهارات والمعارف والاستفادة منها في الحكم والتقرير والسلوك.
الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يُعمِل عقلَه وفكرَه ويحسب للمستقبل ألف حساب، ويضع نصب عينيه غاياتٍ، وأهدافاً بعيدة. استطاع الإنسان أن يفهم الظواهر المحيطة به وأن يربط بينها بعلاقات منسّقة

وأن يرسم طريق تطور الحياة. لكن البعض فشل في اختيار نسب جيد له، فاختار النسب اللاواعي.

إنّ هذا العقل الذي يمتلكه الإنسان هو نشاط المخ، وهو فعل من أفعال القلب، والقلب الذي يملكه الإنسان ليس ككل القلوب، فهو موطن شخصيته وهو منبع نشاطاته. كما أنه يعرف العاطفة، فيحب ويكره ويضحك ويبكي بإيحاء من القلب، وهو الوحيد القادر على المناقشة وابتداع أجمل الكلام وتنسيقه، كذلك بايحاء عجيب، وقدرته على التنبؤ بالمستقبل وأحلام النوم واليقظة أيضاً أمر عجيب.إنه الإنسان، فهم النظام، وفهم القوانين، وفهم الديانات والعقائد ولمَّا تفكَّر في خلق السنوات والأرض توصَّل إلى الخالق، فآمن به، وخرَّ له ساجداً.

﴿إِنَ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب * الذين يَذكُرون اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهم، ويَتَفكَّرون في خَلقِ السمواتِ والأرضِ، رَبَّنا مَا خَلَقتَ هَذا بَاطِلاً سُبحانَك فَقِنا عَذاب النار ﴾آل عمران (190 – 191).

أسرار يكشفها القرآن

لماذا يتوجب علينا أن ننهل في هذا البحث من القرآن الكريم ونحن نتحدث عن اكتشافات علمية ولقى مستحاثية وتطور ظروف بيئية وما إلى ذلك من الأمور العلمية؟

لقد جرت عبر التاريخ وخاصة الحديث والمعاصر منه مناظرات علمية طويلة ودقيقة بين علماء ماديين وآخرين ممن نهلوا من علوم القرآن الكريم، فانتهت هذه المناظرات إلى إثبات حقيقة لا ريب فيها، وهي أن القرآن الكريم كلامٌ منزل من رب العالمين، يعجز البشر عن الإتيان بمثله من يوم نزوله وحتى يوم القيامة، وقد تحدى القرآن جميع البشر في الإتيان بسورة من مثله

﴿**وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾ البقرة 23

فالقرآن الكريم كتابٌ معجز ببيانه وإحكامه وتفصيله وبلاغته.

﴿**الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ هود 1

وقد وردت فيه جوانب علمية دقيقة لم يكن الناس على معرفة بها ساعة نزوله وهذه الجوانب العلمية التي عرفها وفهمها المؤمنون على مر العصور راعت جميع العقول، كما أنهت كانت دائمًا الشرارة التحفيز التي لا تنطفىء نحو الاكتشاف العلمي والأخذ بالأسباب

والسعي خلف النواميس الكونية واكتشاف قوانين الطبيعة من أجل الابتكار الدائم، إن الآيات التي تحتوي أمورًا علمية هي أمثلة حيّة من حولنا في أنفسنا وفي محيطنا وفي الطبيعة والكون الذي نعيش فيه بينها الله تعالى لنا لتكون منهاجًا علميًا نحو الابتكار الدائم.

يشير فضيلة الدكتور عدنان الزرزور إلى أن هذه الآيات لا تنضوي تحت مصطلح الإعجاز العلمي وإنما تحت مصطلح التفسير العلمي، وهي قرائن صريحة واضحة على أن هذا القرآن كتابٌ منزل.

وما يفيد بحثنا ودراستنا في موضوع أصل الإنسان هنا هو أن الأمر قد ورد ذكره في القرآن الكريم، لذلك وقبل أن نقتبس قصة الخلق من نور الذكر الحكيم سنلقي الضوء على بعض الآيات العلمية وتفسيرها العلمي لتكون مدخلًا لكل قارىء على مختلف التوجهات نحو موضوع أصل الإنسان كما ورد في القرآن.

حينما انطلق علماء أصل الإنسان في أبحاثهم، ووضعوا الفرضيات والقوانين الطبيعية، فإنهم بدأوا من آرائهم وتخيلاتهم، ضاربين عرض الحائط بكل المفاهيم التي تختزنها ثقافات الشعوب، فجاءت فرضياتهم منبوذة من كل الناس غريبة كلّ الغرابة عما تضمنته هذه الثقافات.

ومن المؤسف أن نجد بعض علماء الطبيعة من المسلمين قد انقادوا خلف تلك الفرضيات وآزروها وناصروها بالحجج والبراهين، وعملوا

على نشرها وتعميمها على الملأ، غافلين عن شتى العلوم والمعارف التي ألقاها القرآن الكريم بين أيديهم، وبشكل معجز.

﴿**وَلَقد صَرَّفنا في هَذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، وكانَ الإنسانُ أَكثرَ شيءٍ جَدَلا** ﴾ الكهف (54).

وإننا في سعينا الحثيث خلف معرفة الحقائق عن نشأة الإنسان على الأرض، نلجأ إلى القرآن الكريم، لكي نتعرَّف على بعض مزاياه، ونتأمل بعض جوانب تفسيره العلمي، ثم نلتمس الحقائق عن خلق الإنسان وأطوار نشأته، ونقارنها مع الفرضيات التي وضعها الأنتروبولوجيون والطبيعيون بهذا الخصوص.

ثم لنكتشف الحقيقة ﴿**وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف 29).

إنَّ من يتفكر في القرآن الكريم، يجده قد اشتمل على معارف كثيرة ومتنوعة، تتناول العقائد والعبادات والمعاملات والحياة والأحياء والكون والطبيعة والأخلاق الفاضلة، وغير ذلك مما يطول سرده، حتى كان ذلك مما يلفت قارئه مهما كان عليه من العلم. إنه كتاب هداية، ببيان معجز.

" إنه منهاج حق، ومنار صدق للجادين في علمهم وعملهم، وهو البحر في علومه ومعارفه وحكمه وأسراره، فإن بحثت عن العقائد ففي القرآن أقومها وإن بحثت عن الشرائع، ففي القرآن أحكمها، وإن بحثت عن العلوم ففي القرآن أوسعها، وإن بحثت عن العوالم ففي القرآن

أخبار أعلاها وأسفلها وإن بحثت عن عالم المادة وجدت فيه بيان كل عنصر ومادة" (هدي القرآن . للشيخ المرحوم عبد الله سراج الدين).

يقول الدكتور موريس بوكاي بعد اطلاعه على هذا الكتاب الكريم:

" إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه القرآن لأول مرة، هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الإنسان ".

ومن الملفت للنظر أن هذه المعارف الكثيرة، والعلوم الدقيقة، تأتي وفق تدرج علمي وتسلسل منطقي بديع من الأسهل إلى الأصعب، ومن البساطة إلى التعقيد، ومن السطحية إلى التعمق، مخاطبًا العامة والخاصة من الناس على مرّ العصور، وقد تلقى الرعيل الأول القرآن منجَّماً مفرَّقاً على دفعات، فلم يتلقوه جملةً واحدةً لأسباب عديدة كان منها: تثبيت فؤاد النبي الكريم، وتقوية قلبه، ومواجهة ما يطرأ من أمور أو حوادث تمس الدعوة الإسلامية(تتسع لأسباب النزول).

وكان هذا الرعيل يتعرف على آيات الله في خلقه فيعيها ويؤمن بها، كما إنهم كانوا يتعرفون على صفات خالقهم وملكوته ليعرفوا أنّ خالقَ هذا الكونِ المحكمِ، المترابطِ بأدق الأمور، عظيمٌ وقديرٌ ويحتفظ لنفسه بصفة " الخلق" فيكون خلاقاً منذ الأزل وفي كل لحظة، وكذلك كل صفاته، فهو المبدع في كل حين، وهو القادر في كل حين، وهو

المصور في كل حين. فعندما ندخل إلى متحف أبدع الخالقين والقادرين والمصورين نجد فيه كل جزئية صغيرة تدعونا للتوحيد.

هذا الكون الفسيح لوحةٌ معروضة أمام البشر ليتفكروا فيها آناء الليل وأطراف النهار، فيجدوا فيها آياتٍ مبصراتٍ ترسم لهم ذلك الطريق الذي يجب أن يسلكه كل إنسان ليصل إلى الخالق، ويجعل من العقل دليلاً في هذا الطريق. إنّ القرآن الكريم ينطلق بأسلوب متدرج، ومن معلومات تتوافق مع عقول العامة الهائمة في لُجَّةِ الجهل، فيحملها برفق، ويسمو بها بتؤادة، كي لا ينفضوا من مجالس القرآن، ولا ينفروا من تعاليمه، حتى إذا نهضت عقولهم من الجاهلية ونفضوا عن أنفسهم غبار الجهل، أمتعهم القرآن بصور رائعة من ملكوت الله تعالى.

فهاهم أولاء قد جاؤوا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولمَّا تنفتح عقولهم لأنوار هذا الملكوت، يسألونه عن أحوال الأَهِلَّةِ كلّ شهرِ بالزيادة والنقصان، مرة يتقعر من جهة اليمين، ومرة من جهة الشمال، تارة تراه بدراً مكتملاً يسطع بنوره في قبة السماء، وتارة أخرى تراه أفل. ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ**﴾ البقرة 189

وهو سؤال لا بد أن يخطر ببال كل ذي عقل، إذا تفكر في السماء وما يدور فيها. فيقف الرسول الكريم صامتاً حتى يسعفه القرآن بجواب يتوافق مع الأفق الإدراكي لهؤلاء السائلين، فيكون الجواب القرآني مبسطًا تتناوله عقول العامة بالرضا والقبول:

﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ البقرة 189

إنها مواقيت للناس في أعمالهم الدينية والدنيوية، يحددون بها أوقات زرعهم وأعمالهم وشروطهم المؤجلة، وأمور دينهم في الصوم والفطر، وعِدَدِ النساء ومناسك الحج، وما إلى ذلك، من الأمور التي تحتاج إلى توقيت.

ولكن لماذا يتضاءل القمر، حتى يختفي كله، ليظهر من جهة أخرى بشكل قوس يكبر شيئاً فشيئاً حتى يكون قرصاً دائرياً منيراً؟

ما هي العمليات التي تجعله يظهر بهذه الأشكال المتعددة؟

الإنسانُ لن يكف عن الأسئلة، والله تعالى يعرض الأجوبة كلما حان وقتها، ويبينها للناس لعلهم يعقلون. أنظر مثلاً إلى هذه الآية القرآنية:

﴿**هُوَ الذي جَعَلَ الشمسَ ضياءً، والقمرَ نوراً، وقَدَّرناهُ مَنَازِلَ**﴾(يونس 5)

تندرج معلومات إضافية ذات مستوى علمي أرفع لتبين للناس أشياء أخرى لا يعلمونها، إنها من حقائق هذا الكون: الشمس مضيئة، والقمر منوّر، والضياء هو ما كان من ذات الشيء، والنور ما كان حادثاً من غير الذات، ونور القمر مستفاد من ضوء الشمس.

فالشمس هي نجم مؤلف من غازات ملتهبة أهمها الهيليوم والهيدروجين، ونتيجة اشتعال هذه الغازات على الدوام تتكون الهالات حول الشمس ويتكون مجالها الحراري والضوئي، فتتلقى الكواكب السيارة منها الحرارة والضوء. والقمر هو كوكب تابع للكرة الأرضية،

وهو يتلقى ضوء الشمس ويعكسه إلى الأرض كما تفعل المرآة، فيبدو القمر حينذاك منوراً، فنور القمر ليس منه.

ويسأل الإنسان: ما سر تغير شكل القمر؟

ويكون الجواب: ﴿**وَقَدَّرناهُ مَنازِلَ**﴾ يس 39

إنّ مسير القمر مقدر في منازل، ومسيره هو دورانٌ حول الأرض. والمنزلة هي المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة، وعدد هذه المنازل/ 28/ منزلة فيتغير بذلك شكل القمر كل يوم وليلة، لأنه ينزل منزلة أخرى وهكذا حتى آخر الشهر القمري.

﴿**والقمرَ قدرناهُ مَنازِلَ حتَّى عادَ كالعُرجُونِ القديم**﴾ يس(39)

هذه المنازل الثمان والعشرون تنتهي بآخر منزلة، في اليوم الأخير من الشهر القمري وفيها يكون القمر كما يشَبِّهُهُ الله تعالى في هذه الآية كالعرجون القديم.

والعرجون القديم هو عودُ عنقودِ التمر إذا جَفَّ وتقوَّس واصفر. وإنها دقة في الوصف والبيان، والفعل (عاد) يدل على الحالة البدائية للقمر في الأيام الأولى إذ يعود كهيئته في أول المنازل.

وعن مسير القمر في الفلك، هناك آيات أخرى تعرض علينا صوراً علمية أخرى نجدها آيات مبصرات تبني العقل قبل كل شيء وتحفزه للتفكير.

﴿لا الشمسُ ينبغي لَها أن تُدرِكَ القمرَ، ولا اللَّيلُ سابِقُ النهار، وُكلٌ في فَلَكٍ يسبحون﴾ (يس 40).

للحفاظ على توازن الفلك، كل كوكب يسير في مداره المقدر له، لا يخرج عنه قيد أنملة، ولو خرج لاختل التوازن وانتهت الحياة. الشمس والقمر والأرض وكل ما نراها من نجوم وما لا نراها من أجرام سماوية بعيدة كلها تدور في هذا الفلك. وهذه الآية الكريمة تلغي كل النظريات التي تقول بأن الشمس ثابتة لا تدور وبأنها مركز الكون، وقد اكتشف العلم نفسه هذه الحقائق، المكشوفة قبل قرون، ولكن لا يزداد الإنسان يقيناً إلا بالماديات والمحسوسات.

الشمس والقمر شريكان للأرض في تكوين الشروط الحياتية، لكن تلك النجوم البعيدة ما سرها؟

يبين الله تعالى أنها مصابيح تزين السماء. لكن هل تنقطع الحكمة هنا؟ ألا يرينا الله تعالى آياته في الآفاق؟

إنّ الحديث عن النجوم وأسرارها يطول، وإنّ ذكر الأرقام الخيالية عن بعدها عن الارض يكاد يكون مذهلاً.

يقول العلماء: إن أقرب نجم إلى الأرض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية، وتحتاج المركبة الفضائية إلى 50 مليون سنة حتى تصل إليه، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها شعاع الضوء خلال سنة. وسرعة شعاع الضوء هي 300 ألف كم/ثانية.

" وهناك نجم آخر يسمى المرأة المسلسلة، يبعد عن الأرض 20 مليون سنة ضوئية وهناك مجرات تبعد عنا 20 مليار سنة ضوئية، والشمس تبعد عن الأرض مسافة 156 مليون كم، ويقطع شعاع الضوء الشمسي هذه المسافة في أكثر من ثماني دقائق ". (محمد راتب النابلسي، كلية الشريعة، جامعة دمشق).

ويقول الفلكيون: إنّ الفضاء ليس له نهاية، ونقول لهم: إن الله تعالى قال في كتابه العزيز قبل أربعة عشر قرناً:

﴿**والسَّماءَ بنيناها بِأَيدٍ وإِنَّا لمَوُسِعُون**﴾ الذاريات (47)

ولن يأتي أحدٌ على نهاية الفضاء، إذا كانت المركبة الفضائية تحتاج إلى 50 مليون سنة لتصل إلى أقرب نجم، فمتى ستصل إلى المجرة التي تبعد 20 مليار سنة ضوئية؟

ولو قُدِّرَ لهذه المركبة أن تصل إلى أقرب نجم بعد 50 مليون سنة، فأين سيكون هذا النجم حينذاك؟

إن الشعاع الضوئي القادم من هذا النجم قد مَرَّ عليه أربع سنوات ضوئية، وكل النجوم تسير في هذا الفلك دون توقف، ولذلك فمن العبث أن نحاول تحديد مواقع النجوم.

إن مواقع النجوم أعظم سراً من النجوم ذاتها، ولذلك فقد أقسم الله تعالى بها ولم يقسم بالنجوم في الآية التالية:

﴿**فَلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجُومِ، وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لو تعلمونَ عَظيم**﴾ الواقعة (75 – 76).

ما كان الإنسان يعلم عظمة هذا القسم، وربما لا يزال يجهله، لكن هذه المعلومات التي يعطيها علم الفلك عن مواقع النجوم، ربما تكشف جانباً من عظمة هذا القسم.

لماذا كل هذه الأعاجيب في هذا الفضاء الواسع؟ وما هي الحكمة من اتساع الكون؟ إذا تفكرنا في هذا الفضاء الواسع وما فيه من أعاجيب فإن أول ما نوثقه في قلوبنا هو عظمة الخالق وقدرته، ودقة الترابط في مواد هذا الكون، وجهل الإنسان بالكثير من هذه الجزئيات الدقيقة، وتتجلى أمامنا الحكمة الربانية:

﴿**لِتَعلمُوا أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدير**﴾ (الطلاق 12).

ونرفع أبصارنا إلى السماء لنراها زرقاء في النهار، وسوداء مزينة بالمصابيح المتلألئة في الليل.

كيف بنى الله تعالى هذه السماء، وما هي موادها، وكم سماكتها؟ أسئلة كثيرة شغل الناس بها أنفسهم، وألقى العلم معلومات كثيرة بين أيديهم.

والكثير من المؤسسات العلمية ما تزال مشغولة في إثبات فرضيات نشأة الكون، وقد وضع العلماء العديد من الفرضيات ولا تزال الأوساط العلمية تتنازع فيما بينها لترجيح فرضية على أختها.

فرضية الأصل الواحد للسماء والأرض ذكرها القرآن الكريم

﴿**أَوَلَم يَرَ الذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَواتِ والأرضَ كَانَتَا رَتقاً فَفَتَقناهُما، وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَي**﴾ (الأنبياء 30).

فبعد أن انفصلت الأرض عن السموات تكوّن الماء بشكل بجار جوي تكاثف وهطل مطراً غزيراً باعثاً على الحياة.

ويقدم لنا القرآن الكريم عدد السموات

﴿**ثُمَّ استَوَى إِلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبعَ سَمَواتٍ**﴾ البقرة (23)

فكل هذه المجرات والنجوم والشموس والأقمار، تسكن السماء الدنيا. أما عن المادة الأولية التي تركبت منها السماء فيخبرنا الله تعالى بأنها

دخان، والدخان هو ما كان جامداً أو حاراً، وهو يتوافق مع بداية النشأة والتكوين.

وبالنسبة للأرض فإن الطبقة المحيطة بها مباشرة تسمى الغلاف الجوي، وهي مؤلفة من غازات عديدة أهمها الأوكسجين الذي تتنسمه جميع الأحياء وينقسم الغلاف الجوي إلى طبقات عديدة، تنخفض فيها نسبة الأوكسجين مع العلو إلى أن تختفي في طبقات الجو العليا.

لقد أشار القرآن الكريم إلى انخفاض نسبة الأوكسجين في الجو مع العلو والصعود في السماء وإلى ما يرافق ذلك من ضيق صدر وشعور بالاختناق.

﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ للإسلام، وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يجعَل صَدرهُ ضَيقاً حَرَجَاً كَأَنَّمَا يَصَّعَدُ في السَّماء﴾ الأنعام (125).

فهنا إشارة واضحة إلى أن الصعود في السماء يترافق مع ضيق صدر ومشقة ومكابدة وشعور بالاختناق تنطبق على حال الشخص البعيد عن هداية الله تعالى، وجاءت كلمة " يَصَّعَدُ" بتشديد الصاد لتدل على هذا الموقف العصيب.

وبعيداً عن الغلاف الجوي، فإن السماء تمتلئ بالكواكب والكويكبات والمذنبات والشهب وغيرها من الأجسام السابحة، حتى إن بعض المناطق في الفضاء الكوني تعتبر شديدة الخطورة على المراكب الفضائية، إذ إن قطعة صغيرة من الأجسام الفضائية تكفي لتحطيم أكبر مركبة، وتتجنب هذه المراكب خطورة المناطق تلك

بتتبعها مسارات مرسومة مسبقاً لا تحيد عنها أبداً في رحلتها، وهذه المسارات هي المنافذ الحقيقية التي تستطيع المراكب أن تنفذ منها.

﴿**يا مَعشَرَ الجِنّ وَالإنسِ إن استطعتُم أَن تَنفُذُوا مِن أَقطارِ السمواتِ والأرضِ فانفُذُوا، لا تَنفُذُون إلا بِسلطان**﴾ الرحمن (33).

فكأنما السماء قبة أو سقف للأرض محكمة البناء بمواد صلبة تركت فيها بعض المنافذ للعبور.

﴿**الذي جَعَلَ لكُمُ الأرضَ فِرَاشَاً والسماءَ بِنَاءً**﴾ (البقرة 22).

وكلُّ شيء إلى زوال. هذه النجوم المضيئة تتقلص يوماً بعد يوم في كتل صغيرة يسميها العلماء "بالثقوب السوداء"، وهذه الشموس تحترق، وتقل غازاتها بالتدريج وهذه السماء الواسعة؟ ما شأنها؟ وكيف ستكون نهايتها؟

التقطت صور فضائية لأشكال غاية في الغرابة، وصفها العلماء بأنها وردة حقيقية ضخمة في السماء لها توهج أحمر وكأس أخضر وفي مركزها مكان الأسدية والأخبية بلون أزرق، ويفترض هؤلاء العلماء أن هذه الوردة الكونية نجمت من انفجار نجم يسمى عين القط، الذي يبعد عن الأرض ثلاثمئة سنة ضوئية فهل يمكن أن تنفجر السماء بشكل ورود؟.(محمد راتب النابلسي، كلية الشريعة،جامعة دمشق).

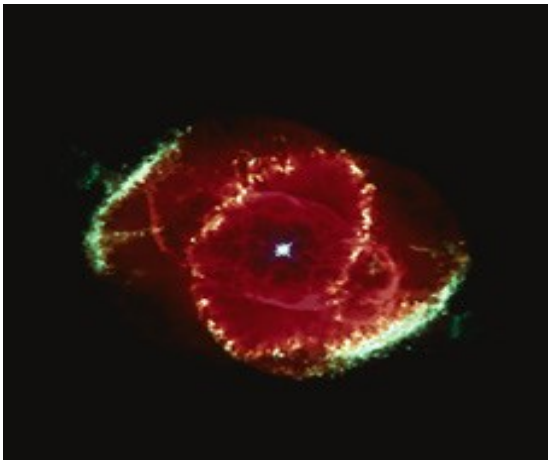

يخبرنا الله تعالى عن انشقاق السماء، ويخبرنا عن صيرورتها
﴿**فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ**﴾ الرحمن 37

إنّ من بين ملايين الكواكب التي تحتضنها السماء لم يُعثر حتى الآن على أيّ شكل للحياة فيها إلا على الأرض، فكأنما خلق الله تعالى كلَّ هذا الكون من أجل الأرض، وخلق الأرض من أجل الإنسان، فما هي الأرض وكيف نشأت وتكونت؟

معلومات كثيرة عن الأرض وشكلها وبنيتها تعرض علينا عند قراءتنا لكتاب الله تعالى ونجد أن هذه المعلومات تأتي أيضاً في آيات مختلفة في تعقيدها العلمي.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 22).

جعل الارضَ وطاءً للاستقرار عليها والحياة فيها، ثم تأتي معلومات أخرى وتتعقد شيئاً فشيئاً لتشمل وصفاً عاماً للأرض ككوكب، فيخبرنا الله تعالى أنه قد بسط الأرض طولاً وعرضاً لتيسير العيش عليها، والانتفاع بما فيها، وخلق فيها جبالاً تحفظ لها توازنها، كما أجرى فيها أنهاراً عذبة تبعث على الحياة فيها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد 3).

تتضمن هذه الآية الكريمة معلومات كثيرة، منها ما يتعلق بكلمة "مدَّ ". كلمة " مدَّ " معناها بسط، أي بسط الأرض وجعلها ممهدة مفروشة، لكن الأرض لا تكون ممدودة ومنبسطة في كل أجزائها إلا إذا كانت كروية، لماذا؟ لأن كل الأشكال الهندسية الفراغية ما خلا الكرة تكون لها حواف، فالمكعب، والهرم، والأسطوانة وسواها جميعها لها حواف، فلا تكون مسطحة منبسطة في هذه الحواف، أما الكرة فهي منبسطة في كل أجزائها، وكل جزء صغير منها يصلح لأن يكون سطحاً، ففي هذه الكلمة إشارة واضحة إلى كروية الأرض، ولقد لاحظ الإنسان علامات كثيرة من خلال حياته على سطح الأرض، أشارت

إلى كرويتها، ولعلنا نذكر ما قدمه غاليليو غاليلي من أبحاث في هذا الخصوص، والتي قوبلت بالرفض والاستنكار، وطولب غاليليو بالعدول عن كل أفكاره التي لا مكان لها في مجتمع حكمته عقول الجهل والسذاجة.

ولكن فيما بعد ثبت بشكل قاطع الشكل الكروي المفلطح للأرض، وثبت دورانها حول نفسها وحول الشمس، وقد أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى هذا القانون الكوني، ﴿**وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ**﴾ (ق 7)

﴿**واللهُ جَعَلَ لكُمُ الأرضَ بِسَاطَاً لِتَسكُنُوا فيها سُبُلاً فِجَاجَاً**) (نوح (19 – 20)

(**والأرضَ وَضَعَها لِلأنام**﴾ (الرحمن 10).

ينتج عن دوران الأرض حول نفسها تعاقب الليل والنهار في المكان الواحد، ويتوافق وجود الليل والنهار على الأرض ويختلف التوقيت على سطح الأرض من مكان إلى آخر، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقائق في آيات عديدة.

﴿**لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (يس 40).

فلا النهار يسبق الليل، ولا الليل يسبق النهار، لماذا؟ لأنهما موجودان معاً وبشكل دائم، وإذا غاب النهار عنا، وأسدل الظلام ستاره، فهو

موجود في مكان آخر. وحقيقة الوجود المتوافق لليل والنهار ما هي إلا برهان على كروية الأرض.

أما عن دوران الأرض حول الشمس فتنتج الفصول الأربعة، واختلاف الوقت على مدار السنة، وهناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم على حركة الأرض، ولا بدّ أن تكون هذه الحركة متمركزة، والإثباتات الفلكية تقول بأن الشمس هي مركز الحركة الدائرية للأرض ولكن لماذا لا نحسُّ بحركة الأرض؟

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل 88)

قد نصدّق أنّ الجبال تتحرك، فهي ثابتة راسخة منذ القدم، كذلك حينما نجلس بجانب سائق سيارة فنراه ثابتاً لا يبتعد ولا يقترب منا، ولكن إذا نظر إلينا شخص آخر خارج السيارة فإنه سيرانا نسير بسرعة مع السيارة فهل السائق ثابت أم متحرك؟

إننا نتحرك مع الجبال نفس الحركة، فلا نحس بحركتها، أما رائد الفضاء، إذا راقبَنا من بعيد فسيرى الأرض وما عليها تسير في حركة مستمرة، الجبال تمرُّ في الفضاء مرَّ السحاب، والجبال هي جزء من الأرض فالأرض إذًا تمرُّ في الفضاء مرَّ السحاب، والمرور هو انتقال مستمر من مكان إلى آخر، فهو ليس دوراناً في المكان، فالآية تشير

بوضوح إلى حركة وانتقال، وعلى ظهرها تلك الجبال الراسيات التي خدّت فيها الحياة أودية وأنفاقاً وحفرت فيها الكائنات أوكاراً وحجوراً وملاجئ.

ونجد أن القرآن الكريم يشير إلى أهمية الجبال بشكل تدريجي، فتنكشف هذه الأهمية رويداً رويداً والأهمية الأولى التي أدركها البشر منذ القدم لهذه الجبال هي:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف 74).

وهذا ما فعله قومُ ثمود، وفعله النحل أيضاً:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل 68).

واتخذ الإنسان هذه الجبال منذ القديم كملاجئ، يلجأ إليها في شتى الظروف درءًا لشرّ الكائنات الأخرى، وحفظاً من أخطار الطبيعة، فالله تعالى قد جعل من الجبالِ ما يستكن فيه من كهف أو غار أو سرب أو نفق.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل 81)،

أما على المستوى العام فتبرز الفائدة الأهم لهذه الجبال:
﴿**وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (الأنبياء 31).

فالجبال التي تثبّت الأرض، وتحقّق توازنها وبقاء ميلانها ثابتاً، فتنغرس في الأرض في تكتلات موزعة على سطح الأرض بشكل منسّق وفق سلاسل متطاولة أو تلال متفرقة، ويصفها الله تعالى بأنها: ﴿**والجبالَ أوتاداً**﴾ (عمّ 7).

والوتد هو ما كان مغروساً في الأرض، مثبتاً فيها، فهل الجبال أيضاً مغروسة في الأرض، مثبتة كالأوتاد؟ قممها على الأرض وجذورها في الأعماق؟

بعد اكتشاف الأجهزة الحديثة للتنقيب، وتطور الدراسات الجيولوجية،أُعطيت معلومات دقيقة جداً عن بنية الجبال وتركيبها واكتُشف أنّ الجبال إمّا أن تكون بشكل طبقات أفقية متراكبة يبرز جزء يسير منها على السطح بينما تمتد جذورها حتى الأعماق. أو أن تكون بشكل طبقات مطوية أومتصدعة. وفي كل الأحوال فهي راسية كسفينة على البحر، جزء منها تحت الماء وجزء ظاهر، وهذا هو وجه التقابل بين كونها راسية وبين كونها أوتادًا تنغرز في القشرة الأرضية لتصلح إلى طبقة المعطف، حيث تتراوح سماكة القشرة ما بين 12 وحتى 30كم

وهي في كل الحالات، تتألف من أنواع مختلفة من الصخور (رسوبية، نارية، ومتحولة) بألوان مختلفة:

﴿**وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ (فاطر 27).

ويميز الجيولوجيون بين الأنواع المختلفة من الصخور، وكل صخر يحتوي على أنواع مختلفة من الفلزات، وكل فلز يتميز بلون محدد، وعلم البتروغرافيا يقول لنا: إن الحجر الأصم الذي لا يثير لنا أي انتباه، عالم بذاته، يحتوي على الكثير من العجائب، فمكونات الصخر كثيرة جداً منها ما تكون بيضاء كفلزات الكلس والمرو والسيليكات، أو حمراء مثل فلزات الحديد والغضار، وصفراء مثل الذهب والبيريت والليمونيت، وسوداء داكنة كما في صخر البازلت والدولوميت وتشكيلات الفحم الحجري. كما يمكننا أن نرى سلاسل جبلية ممتدة بلون أسود، أو ألوان أخرى.

وهذه الفلزات، بهذه الألوان المختلفة، هي في الحقيقة مكونات الكرة الأرضية والكثير منها تعتبر كخامات اقتصادية يصرف الناس جهوداً حثيثة في البحث عنها:

﴿**لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ**﴾ (طه 6).

فاستثمر الإنسان خامات الأرض اللامعدنية كالنفط والفحم والفوسفات، وأنواع الصخور المختلفة، كما استثمر الخامات المعدنية

من ذهب وفضة ونحاس وحديد واستفاد ويستفيد منها في تطوير وتنمية حياته على الأرض.

كما قام الجيولوجيون بدراسة طبقات الأرض وتقسيمها إلى نطاقات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ووجدوا أنها تتألف من سبع طبقات رئيسية هي من الأعلى إلى الأسفل: القشرة الأرضية . نطاق موهو . المعطف العلوي . المنطقة الانتقالية . المعطف السفلي . النواة الخارجية . النواة الداخلية ويوضح القرآن الكريم عدد طبقات الأرض من قبل أن يفكر الإنسان بذلك:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق 12).

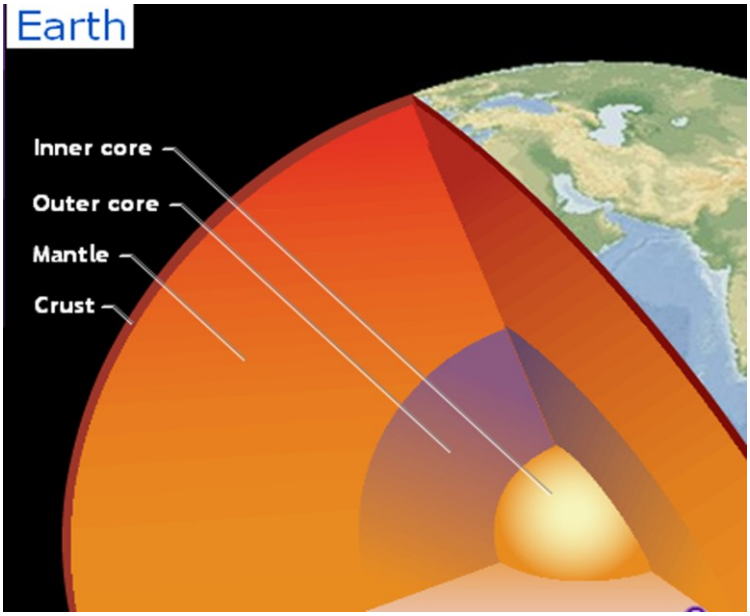

ويقول الجيولوجيون أيضاً إن نواة الأرض هي من الحديد والنيكل، وهذا الحديد الذي يدخل في تركيبة الأرض لا يمكن أن يكون منشؤه من الأرض لأن الطاقة اللازمة لتوحيد ذرتي حديد تفوق الطاقة الشمسية بأربع مرات. يقول الله تعالى في الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد 25

فالحديد أُنزل إلى الأرض ولم يتشكل عليها، لندرك أسرار الكون، ونتوجه إلى خالقه، ننحني بخشوع لعظمته التي تتجلى في إبداعه لخلقه.

إننا لا نستطيع أن نحصر الأدلة المادية الموجودة في القرآن الكريم والتي تدل على المصدر الإلهي له، ولا نتوسع في موضوع التفسير العلمي لآيات الكون والنفس، بل نكتفي بما سبق لنمهد الطريق للبحث عن نشأة الإنسان في القرآن الكريم.

فقد جاء القرآن الكريم بهدايةٍ كاملةٍ في جميع الشؤون، وزادت عدد آياته على ستة ألاف آية، تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات، وجاء ذلك كلُّه متفقاً في معانيه وأحكامه، ومتَّسقاً في أسلوبه وبيانه، فكان ذلك دلالة إعجازه:

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾ (النساء 82).

إنّ هذه المعلومات التي يبينها القرآن الكريم تأتي لتنبئ كل ذي عقل بوجود الخالق المبدع، فيهدي المخلوق إلى الخالق، عبر آيات مبصرات يكتشفها المخلوق حيناً بعد حين.

ويستمر المنحى العلمي في الصعود ليكشف حقائق أخرى عن طبيعة جسم الإنسان بالأخص لأولئك المختصين بتشريح الأحياء واكتشاف أسرارها.

﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت53)

﴿**وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات 21).

ويقف العالِم التايلاندي (تاجاثات تايسون) مدهوشاً، وهو عالم التشريح الذي لا تخفى عليه خافية عن جسم الإنسان، فكيف لم ينتبه إلى سرٍ من أسرار هذا المخلوق العجيب، تنتشر في بشرة الإنسان نهايات عصيبة حساسة بالألم واللمس والحرارة (الحرق) وهي موجودة فقط في البشرة، فباقي أنسجة الجسم لا تحس بالحرق لعدم وجود مثل هذه النهايات العصبية، وأمام هذه الحقائق أيقن تايسون أن عذاب الخالدين في النار لا يمكن أن تستمر إذا احترقت جلودهم واحترقت معها هذه النهايات.

فلما اطلع على القرآن الكريم وجد فيه مبتغاه:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ((النساء 56).

فلا يستمر الحرق لكل الجسم بل للجلد فقط، حتى إذا نضج وتعذب الكافر بألم الحرق، عاد الجلد مجدداً وعادت النهايات العصبية لتحس على الدوام بألم الحرق، فيستمر العذاب.

(وَفي الأرضِ آياتٌ للمُوقنين، وفي أنفُسِكُم أَفَلا تُبصِرُون، وفي السماءِ رِزقُكُم وَمَا تُوعَدُون فَوَرَبِّ السماءِ وَالأرضِ إِنهُ لحقٌ مثلما أَنّكم تَنطقون) "الذاريات(20-23).

خليفةُ الله

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الأرض كانت عامرةً بالحياة قبل ظهور الإنسان، بل كانت تبحث عن أجمل أثوابها لتستقبل به من خُلقت وأُعدت لأجله، ونجد أن النظريات العلمية لا تنتهي إلا إلى هذه الحقيقة. ولقد أوردنا في بداية البحث ذلك التطور العجيب الذي سار بالأرض منذ نشأتها، حيث كانت خاليةً من كل صنوف الحياة، حتى إذا اهتزت الأرض وربت، وترابطت فيها كل الشروط الحياتية، من ثبات نسبة الأوكسجين إلى استقرار تقلبات المناخ، والعمليات التكتونية، وإلى تكامل الشروط التي تحقق التوازن الحيوي، كل ذلك يحدث والإنسان ميت لا وجود له.

(هَل أتَى على الإنسانِ حينٌ مِنَ الَّدهرِ لم يكن شيئاً مَذكورا) (الإنسان 1).

أحقابٌ طويلة امتدت من عمر الأرض ذاخرة بكل أنواع الحياة الحيوانية، دون أي ذكر لوجود الإنسان، ونجد ذلك واضحاً في القرآن الكريم عبر آيات تتوالى من سورة البقرة:

(كيفَ تَكفُرون باللهِ وَكُنتُم أمواتاً فأَحياكُم، ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يحييكُم، ثُمَّ إليهِ تُرجَعون) (البقرة 28)، فكل البشر كانوا أمواتاً معدومين قبل أن يخلقوا، فأحياهم الله (خلقهم بعد العدم) ثم يميتهم عند انقضاء آجالهم

في الحياة الدنيا، ثم يحييهم مرة أخرى يوم القيامة للبعث، وإليه يرجعون للحساب والمسألة.

وفي موضع آخر يقول الله تعالى على لسان الكفار:

(قَالوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثنَتَينِ وَأَحيَيتنا اثنتين فاعتَرفنا بِذُنُوبِنا فَهَل إلى خُرُوجٍ مِن سَبيل) (غافر 11). فالإماتتين بأن خلقتنا أمواتاً أولاً من تراب لا حياة فيه، وحين كنا في أصلاب الآباء ثم صَّيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، والإحياءين بأن أحييتنا الحياة الأولى في الدنيا، والحياة الثانية عند البعث.

كان الإنسان ميتاً، لم يخلقه الله تعالى بعد للحياة الدنيا، لكن الأرض كانت تجهز نفسها.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة 29).

فالله تعالى قد خلق ما في الأرض جميعاً، من جبال تتفجر أنهاراً، تجري بين السهول فتخضرّ مروجٌ وبساتين، ومن أحياء حيوانية مسخرة، ومن هواء وحرارة، ومختلف الشروط الحياتية كلها خلقها الله تعالى. للبشر، فجميع ما في الأرض منعم به على البشر فهو لهم.

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية 13). فالله تعالى ينصب العبر من الإحياء والإماتة، والخلق والاستواء إلى السماء، وتسويتها لكي يعود الإنسان إلى التوحيد والاعتبار، فالذي قدر على إحيائكم، وخلقكم،

وخلق السموات والأرض لا تبعد منه القدرة على الإماتة، وهذه الأشياء المسخرة للبشر هي كلها لعذره، ولتكون حجّة عليه، فالله تعالى أمدّ البشر بكل شيء، وطلب منهم العبادة، دون أن يبقى لهم عذرًا، و بعد أن تم هذا الخلق، وأكملت الأرض زينتها، وقامت فوقها السموات السبع، يأتي الإخبار عن الكائن الذي يسكن الأرض ويعمرها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 30).

إنّ الله تعالى يخبر عن خلق آدم، وهذا الإخبار سابق على الخلق، فقبل أن يخلق الله آدم يخبر عن دوره في خلافة الأرض وعمارتها، وتنفيذ أحكام الله فيها، ولكنّ الملائكة وقفت مستفهمة، لأنها تنبأت بأن هذه الخليفة سيفسد في الأرض بإراقة الدماء بالقتل والأذى والعدوان، ولن يقوم لله شاكراً حامداً كما تفعل الملائكة، فلم يروا حاجة لخلق هذا النوع الجديد، وولا ينبغي أن نفهم سؤال الملائكة على سبيل الاستنكار أو الاعتراض لأنهم لا يملكون الاعتراض على أمر الله تعالى.

فأنبأهم الله تعالى بما يجول في خواطرهم ويشغلهم فقال:

﴿إنّي أعلمُ ما لاتعلمون﴾

فهذا الخلق الجديد سيكون فيه أنبياء وصالحون، وميزات جديدة تفرق عن نموذج الملائكة، وعن نموذج الجن، وعن نموذج إبليس، إنه خلقٌ

جديد بميزات جديدة سيعبد الله تعالى مختارًا ويخلفه في الأرض عامرًا مصلحًا.

لكن كيف حكمت الملائكة مسبقاً على الخليفة حكمهم ذلك؟

ربما جاء حكمهم بعد اطّلاعهم على المادة التي يخلق منها، وطبيعة المادة فيها الخير وفيها الشر فالله تعالى أعلن عن مادية هذا الخلق، كما أورد أطوار خلقه. ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ (الحجر 28).

أو أنهم قاسوا الخليفة على كائنٍ ذي وجود أسبق على الأرض أفسدَ فيها ونشر الخراب. فمن هي الكائنات ذات الوجود الأسبق على الأرض؟

وكلمة خليفة تستوعب أن يلزمها مستخلف عنه، سبق وجود الخليفة، فيكون الخليفة قد استخلفه فهل هم الجن الذين سكنوا الأرض فعاثوا فيها فساداً قبل ظهور الإنسان؟

فيكون تأويل الآية: أن الله تعالى جاعلٌ في الأرض خليفةً عن الجن.

أو قد يكون المستخلف عنه مخلوقات أخرى استطاعت أن تكون ذات سيادة وسلطة، فهل يمكن أن يكون (الإنسان المستحاث) معنياً بذلك؟ وهل كان النياندرتال سيداً في الأرض، حتى جاء آدم فاستخلف النياندرتال وصار خليفته؟

حتى ولو ثبت ذلك جدلاً، فإن هذا الإثبات هو الدليل القاطع على انفصال البشر عن النياندرتال، لأن آدم هو الخليفة،أي النوع الجديد الذي خلقه الله خلقاً مغايراً، وأنزله الله إلى الأرض فألغى وجود المستخلف عنه، أو ألغى سيادته على الأقل.

وقد تدل كلمة خليفة على تتابع الخلافة لأولاد آدم على الأرض فيخلف بعضهم بعضًا.

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام 165)

ولعلّ أوسع مفهوم لكلمة خليفة هي الاستخلاف في الأرض، بأن يكون آدم هو خليفة الله في الأرض، يدير أمرها، ويطبق فيها أحكام الله تعالى منتفعاً هو وذريته بمنافع الأرض إلى أن يشاء الله، فتكون كلمة خليفة للدلالة على الاستخلاف للخلق الجديد والسيادة والسلطة والسلطة في الأرض، كما حدث مع نبي الله داوود، ﴿**يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ (ص26)، فهذا إخبارٌ لداود عليه السلام بأن الله تعالى قد استخلفه على الملك في الأرض فجعله ملكاً يدير أمور الناس ويرعى شؤونهم، ويحكم بينهم بالحق.

وبعد أن خلق الله تعالى آدم وأدخله الجنة كلّفه تكليفاً واحداً فقط على سبيل الاختبار، وهو: ﴿**وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ (البقرة 35).

لكن آدم نسي، وكانت نتيجة هذا الاختبار أن أخراجه الله من الجنة وأنزاله إلى الأرض.

وماذا لو لم ينسَ؟ هل كان سيبقى في الجنة؟ وبقينا نحن أيضًا في الجنة إلى يوم يبعثون؟

لكنّ الله تعالى قد أعدّ الأرض قبل خلق آدم، وأعلن أنه سيجعل في الأرض خليفة، أيضاً قبل خلق آدم، فآدم خُلق ليعيش في الأرض، وما كان إدخاله الجنة إلا اختباراً بسيطاً ليتضح منه منهاج حياة البشر في الأرض،

﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا**﴾ (طه 115).

فمعصية آدم كانت عن غفلة ونسيان، ولم تكن عن تصميم، ثم إنه تاب واستغفر الله ولم يتكبر، فهداه الله واجتباه، وهذا منهجٌ مرسومٌ في هذا الاختبار لكل البشر، يغفر الله الذنوب جميعاً بشرط التوبة والرجوع إلى الله، ويطرد الله من رحمته كلّ متكبر مصرّ على إثمه، فهدى الله

آدم وطرد ابليس وكلاهما مُنحَ ميزة الاختيار، فآدم تاب باختياره وإبليس استكبر باختياره.

﴿**فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ (البقرة 36).

ومن هذا اللحظة تبدأ قصةُ حياة الإنسان على الأرض والتي هي صراع مستمر بين الخير والشر

﴿**قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة 38).

وهكذايخبرنا القرآن الكريم أنّ آدم هو أول إنسان عاقل، مكلّف بالعبادة ظهر على الأرض. ومع تتابع الرسل الذين يرسلهم الله تعالى لتذكير الناس بمنهجه كلما ابتعدوا عنه، نجد أنّ الله تعالى يخاطب دائماً بني آدم، فكل الإرشادات والتوجيهات الإلهية التي ترد في القرآن الكريم عن كل الأمم السابقة يأتي الخطاب بها بصيغة بني آدم:

﴿**يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ (الأعراف 26).

فهذه إرشادات وتوجيهات عامة، لجميع بني آدم، منذ أن هبط آدم إلى يوم القيامة، وجاءت هذه التوجيهات حتى نعلم أنّ الله تعالى

لم يترك عباده دون منهج، ولم يخلقهم عبثاً ولعباً، ولا للعب والعبث خلقهم.

لذا فإن تلك الهياكل المستحاثية التي يطلق عليها (الإنسان المستحاث) لن تكون على الإطلاق لكائن لم يكن له دورٌ.
وذكرنا سابقًا أنّ هذه الكائنات كانت بلا عقل، فما كان دورها على الأرض؟
أعيد ما ذكرته أعلاه أن هذه الكائنات كان لها دورٌ حيوي مهم جدًا في الطبيعة، إذ قامت باختبار الظروف البيئية، ومدى ملاءمتها لحياة الإنسان، فقدرتها على العيش في تلك الظروف الزمانية والمكانية كانت القرينة العلمية على قدرة الإنسان على العيش في نفس الظروف (بسبب التقارب الفيزيولوجي بينهما).
(إنّ النظريات التي تحدثت عن أصل الإنسان كثيرة، وكل واحدة منها أبطلت ما قبلها، وآخرها ما يسمى بالدارونية الحديثة، وهي مجموعة افتراضات لم ترتفع إلى مستوى الظن، فضلاً عن اليقين العلمي، والقرآن الذي هو كلام الله عزّ وجلّ يؤكد أنّ جنس الإنسان منذ فجر نشأته خُلق في أحسن تقويم. على أن اكتشاف الصبغيات والجينات وأثرها في شكل الإنسان وصفاته ألغى القيمة العلمية لسلسلة هذه النظريات كلها) (الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . مع الناس).

إنّ الله تعالى يعرض لنا في القرآن الكريم حقائقَ بالغة الأهمية عن خلق آدم ومن ثمّ خلق ذريته من بعده، وأطوار نشأة الإنسان، وأسراراً كثيرة عن هذا المخلوق العجيب، وتأتي هذه الحقائق مرتبة في سلسلة مترابطة تندرج بلطف ويسر من معلومات سطحية مبسطة إلى التعمق في أسرار لم يكتشف العلم منها إلا القليل حتى الآن.

فبعد أن بيّن الله تعالى أنّ كلّ شيءٍ حيّ تم خلقه من الماء، يبين لنا معلومات تكاد تكون تفصيلية عن خلق الإنسان، ولا بدَّ أن تكون البداية من الماء لقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء 30).

ولما كان الإنسان في قائمة الأحياء فلا بدّ أن تكون مادته الأولية هي الماء.

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ (الفرقان 54).

ولا ينحصر معنى الماء على النطفة فحسب، فالعلم يوضح أن جسم الإنسان يتركب من نسبة كبيرة من الماء تفوق نصف وزنه (حوالي 65% من وزنه) والماء، هو من أهم مقومات الحياة واستمراريتها، فهو يضمن للإنسان بقاء حجم دمه ثابتاً، ويدخل في تركيب سوائل جسمه المختلفة، وله دور هام في عمليات الاستقلاب

وحرق الغذاء والنمو، ثم هو الماء الذي يدخل في تركيب النطفة، والنطفة هي الماء الذي يخلق منه الإنسان على الدوام.

ولا بدّ أن تشترك عناصر أخرى مع الماء في تمام هذا البنيان، فتأتي مجموعة من العناصر التي يشتمل عليها التراب، فتدخل في تركيب جسم الإنسان، وعندما استغرب الماديون من جعل التراب مادة الإنسان الأولية فإنهم كانوا يجهلون الكثير من كيمياء التراب، وكيمياء جسم الإنسان.

﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾ (الروم 20).

لقد خلق الله تعالى آدم وهو أبو البشر من تراب، فكان خلقه مغايراً لخلق سائر الكائنات، وستشترك العناصر الموجودة في التراب مع الماء لتبني جسم آدم ومن بعده أجسام ذريته. ولكن هل يتطابق التركيب الكيميائي لجسم الإنسان، مع نظيره في التراب؟

إن التحليل المخبري للتراب يكشف أنه يحتوي على عناصر عديدة مثل الماء والكالسيوم والفوسفور والمغنيزيوم والمنغنيز والسيلسيوم والألمنيوم والحديد والكربون والكبريت. إلخ

وبالمقارنة مع عناصر جسم الإنسان توصل العلماء إلى أنّ ثمانية عشر عنصراً تشترك بين جسم الإنسان والتراب.

وكل رُمَّة مآلها بالتفسخ والتحلل إلى تراب.

هذا خلق الله! كيانٌ عجيب، يتضخم يوماً بعد يوم، يبدع، يفكر، يحلم، يسيطر، يتكبر، يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا، ثم تكون مادته من شيء حقير، تراب ندوسه، وأمام هذه الحقيقة فلا بد أن يتراجع الإنسان عن كبريائه، ويتذكر أن إبليس طرد من الجنة لتكبره.

وهناك تساؤل: لماذا يذكر الله تعالى تسميات مختلفة لمادة الخلق الأولى، فيذكر التراب ويذكر الطين، ويذكر الصلصال،

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران 59).

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة7).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر 26).

إنّ القرآن الكريم في عرضه لخلق الإنسان يدخلنا في تدرج بديع يمر به التراب من مرحلة إلى أخرى، فالمادة الأولى هي التراب، ثم بعدها مرحلة متقدمة، عمليات يجب أن تطرأ على التراب، فتأتي مرحلة الطين، والطين هو التراب نفسه بعد أن مزج بالماء، ثم يترك الطين ليبس ويقسى فتأتي مرحلة الصلصال، والصلصال هو التراب نفسه بعد أن مزج بالماء ويبس فصار يصلصل (يظهر صوتاً إذا نقر عليه). والحمأ المسنون هو الطين الأسود المتفحم.

فهذه المراحل الثلاث هي أشكال مختلفة لمادة واحدة هي التراب، ثم منها خُلق آدم، ثم من آدم خلقت زوجته حواء. ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ (الأعراف 189).

كلّ البشر يرجعون إلى نفس واحدة، وهذه القضية لا تلتقي أبداً مع فكرة التطور، والاحصائيات التي جرت خلال السنوات الغابرة وحتى الآن تدل على تزايد الجنس البشري مع التقدم في الزمن، كما تدل على العكس بالرجوع الى الماضي، فبالرجوع إلى الوراء تنحسر أعداد البشر إلى أن تصل إلى فرد واحد.

وبعد أن خلق الله تعالى آدم، خلق من ضلع آدم زوجته حواء، فنتج زوجان بشريان منفصلان جنسياً، قادران على الإنجاب بطريقة التكاثر الجنسي:

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ (النساء 1).

أما كيفية هذا التكاثر الجنسي فيبين الله تعالى أنه تزاوج واختلاط بين ماء الذكر وماء الأنثى، ينجم عنه كتلة صغيرة تأخذ بالانقسام والتضخم إلى أن تعطي كائناً بشرياً جديداً: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾ (الإنسان 2).

ويعرض لنا القرآن الكريم تلك الأسرار الخاصة بعالم الجنين، التي جهد الإنسان نفسه طويلاً حتى اكتشف بعضها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون12 – 14).

إنّه شرح دقيق لمجمل المراحل التي يمرّ بها الجنين في رحم أمه، بقي العلم سنوات طويلة يبحث في ذلك حتى تزود في بحثه بالأجهزة والمكنات فتمكن من مراقبة ذلك العالم المستور فاكتشف الأسرار التي أعلن عنها القرآن منذ أمد بعيد.

ولقد بيننا الرابطة الحميمية التي تجمع الإنسان بالتراب، وكيف تأخذ هذه العناصر الموجودة في التراب أشكالاً متعددة بتسميات مختلفة. فكيف يكون التكاثر الجنسي:

يقذف الرجل عادة في عمليه الجماع نحو 300 إلى 500 مليون نطفه في الجزء الخلفي من المهبل وتدخل النطاف جوف الرحم، ويكون عددها قد تناقص إلى بضعة آلاف فقط، ويمكن أن تصل النطاف إلى مكان الإلقاح بعد خمس دقائق فقط من القذف بفضل تقلصات الرحم والنفيرين، ويكون عددها قد تناقص إلى بضعة مئات، وتطرأ على النطفة تغيرات عديدة في الرحم تؤدي جميعها إلى تمكين

النطفة من تلقيح البيضة، وبالطبع هناك نطفةٌ واحدة فقط تستمر في اختراق أغشية بيضة الأنثى وتشكيل البيضة الملقحة.

ومن الجدير ذكره هو أن النطاف منها ما تحمل الصبغي (x) ومنها ما تحمل الصبغي(y) أما صبغيات البيضة فهي كلها من النمط (x).

وتتسابق النطف للوصول إلى البيضة، فإن سبقت نطفة تحمل الصبغي (y) وارتبطت مع صبغيات البيضة تشكلت بيضة ملقحة تحمل الصيغة الصبغية(y،x) الخاصة بالذكور، أما إذا سبقت نطفة تحمل الصبغي(x) تصبح الصيغة الصبغية للبيضة الملقحة (x،x) الخاصة بالإناث.

فإذا سبق ماء الرجل (النطفة y) كان المولد ذكراً، وإذا سبق ماء الأنثى (النطفةx) كان المولود أنثى.

فالنطفة هي التي تحدد جنس الجنين، ولا علاقة للأنثى بتعدد الولادات الأنثوية.

وبعد أن تستقر البيضة الملقحة في القرار المكين تبدأ بالانقسامات والتنامي وتتشكل الكيسة الأورمية التي تغزو بطانة الرحم وتعشش فيها مع بداية اليوم السابع **(ثُمَّ جَعلناهُ نُطفةً في قرارٍ مكين)** هذه النطفة هي تسمية أخذتها البيضة الملقحة، لأنّها الجزء القادم من الخارج، أما البيضة فهي جزء من جسم المرأة، ودائماً يكون العنصر الغريب موضوعاً تحت المراقبة، وعند اختلاط النطفة بالبيضة يبقى

الجسم المتشكل تحت اسم نطفة. ينتهي التعشيش مع نهاية اليوم الثالث عشر، **وتتشكل أجواف ثلاثة داخل الرحم هي:** الجوف السلوي، والكيس المحي، والجوف المشيمي، وتكون النطفة قد تحولت إلى كتلة دم متجمد خال من الحيوية يشبه شكلها العلقة، وهي تسمية دقيقة وملائمة جداً لهذه المرحلة.

ثم تمضي هذه الخليقة في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة حتى تأتي مرحلة المضغة، وذلك مع بداية الأسبوع الرابع من التنامي، وتستمر هذه المرحلة حتى نهاية الأسبوع السابع، وهي مرحلة في غاية الحساسية، لأن تعرض الجنين لأي عامل حشوة خلالها يترك أثراً كبيراً في تركيباته وأجهزته، ويؤدي إلى تشوهات عظمية قد تكون مميتة.

وسمي الجنين في هذه الفترة بالمضغة، لأنه يكون أشبه بالمضغة التي يمضغها المرء بين فكيه ويبين القرآن الكريم طبيعة هذه المضغة في موضع آخر:

﴿**مُضغةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَة**﴾ (الحج 5) فالأنسجة التي تتركب منها أعضاء الجنين يكون بعضها قد تمايز وتخلق، وبعضها لا تزال جامدة غير متمايزة وغير مخلقة.

ومع نهاية الفترة المضغية في آخر الأسبوع السابع يكون رأس الجنين قد انتصب وصار مدوراً وتقوَّم. وظهرت الرقبة، والأذنان

والأجفان، وتميزت الأصابع في الأطراف الأربعة، واليدان تغطيان الفم والأنف.

ولقد اكتشف العلم مؤخراً أن المضغة تظهر فيها الأنسجة العظمية التي تنمو وتتطور آخذة شكل الهيكل العظمي ثم تكسى بعدها باللحم.

(تظهر الأنسجة الرخوة بعد ظهور الأنسجة الصلبة)

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون (14)

هذا ما جاء به القرآن الكريم قبل قرون، فهل هو قول شاعر؟ أم هو اقتباس من كتب الحضارات السابقة؟

يقول علماء الأجنة، إنّ الجنين البشري خلال الأسابيع الأولى يكون مشابهاً لأجنة الحيوان، لكنّه مع نهاية الفترة المضغية يبدأ بأخذ شكله البشري المميز الذي لا يشترك به مع أي نوع من أنواع الأحياء، وهذا ما يوضحه القرآن الكريم، فبعد أن انتهت مرحلة إكساء العظام باللحم يبدأ الطور الجديد متميزاً عن باقي الأطوار، ومنحرفاً عن الخط العام الذي تسلكه كل الأحياء في نموها، ليتصور كائن أجمل من كل الكائنات ويختلف عنها كل الاختلاف

﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ**﴾

بينما لا يمكن للحيوان أن يتجاوز مرتبته الحيوانية، فيتطور إلى إنسان تطوراً آلياً،

إنهما نوعان مختلفان، من المستحيل، كما يبين العلم نفسه أن يكون لهما أصل واحد، اختلفا بتلك النغمة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً، واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص البنيوية التي تميز كل نوع منهما، وتقف حجة التشابه عند العتبة، فيبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه.

ويتحول جنين الإنسان في نهاية الفترة المضغية إلى خلق آخر، يصعد إلى أعلى مراتب الأحياء بملكاته، وخصائصه التي وهبها الله له عن تدبير مقصود، لا عن طريق آلي.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

وإنّ القرآن الكريم يكشف لنا بعد ذلك أسراراً وعجائب عن جسم الإنسان، لم يكتشفها العلم إلا مؤخراً.

فالجنين في مرحلة المضغة، يكون محاطاً بثلاثة أجواف ذكرناها آنفاً، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الأجواف الثلاثة بوضوح: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ**﴾ (الزمر 6).

ولقد فُسرت هذه الآية على ضوء آية أخرى وردت فيها هذه الظلمات، ولكن عن موضوع آخر:

﴿**أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾ (النور 40).

وهذه الظلمات تعني وجود طبقات مختلفة من الماء في التركيب العمودي للبحر أو المحيط، تختلف عن بعضها البعض بكثافتها

وبالتالي بدرجة ملوحتها، وبدرجة حرارتها. وتشير هذه الظلمات إلى التيارات البحرية التي تسير في أعماق المحيط.

وهذا المعنى لكلمة ظلمات ينطبق على الأجواف الثلاثة المتشكلة في الرحم بما تحتويه من سوائل مشابهة في تركيبها لماء البحر.

وبعد انفصال الجنين عن أمه هناك فترة تسمى الرضاعة يجب أن تستمر لعامين كاملين، وبمقارنة آيتين ورد فيهما فصال الرضيع، الآية 15 من سورة الأحقاف والآية 14 من سورة لقمان نستطيع أن نعرف أقصر مدة للحمل.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف 15).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان 14)

الحمل والفصال في ثلاثين شهراً، والفصال بمفرده في أربعة وعشرين شهراً، تبقى أقصر مدة للحمل وهي ستة أشهر، يقول علماء الأجنة: إنّ الجنين يتكامل وتجهز كل أعضائه وأجهزته بنهاية الشهر السادس والفترة التي تلي الأشهر الستة هي فترة نمو وتضخم فقط.

إنّ الإنسان هو الأعجوبة الكبرى في هذا الكون، فلو تفكر بكيانه، واكتشف أسرار جسده لعرف أنّ الله حقٌ. وكم من عالم مبدع وقف أمام حقائق عجيبة أراد أن يلحقها بمحض الصدفة فلم ينصره عقله فرأى نفسه منقاداً إلى حقيقة الخالق المبدع بقوة خفية. ولقد

اندهش الإنسان وتحير حينما وقف أمام عجائب نفسه، وجد فيها عالماً مليئاً بالعجائب تكوين الأعضاء، وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي والغدد وإفرازاتها، تناسق هذه الأجهزة وتعاونها، أسرار الروح والطاقات الخفية، أسرار الجنس والتولد والتكاثر، إنّ كلّ جزئية في حياة الإنسان توقفنا أمام خارقة من الخوارق العجيبة، وكلٌّ فرد من هذا الجنس عالم بذاته، ومرآة تعكس الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً، لا في شكله ولا في عقله ومداركه ولا في روحه ومشاعره،ولا حتى في بنانه.

إنّ عجائب الجنس البشري لا يحصرها كتاب، فحتى المعلوم منها يحتاج إلى تفصيل وتشريح، والمجهول منها لا يزال أكثر من المعلوم، والقرآن الكريم لا يحصيها ولا يحصرها، ولكنه ينبه العقل البشري ليستيقظ أمام إبداع الخالق.

ذلك الإبداع الذي يتجلى في هذه الصورة المعروضة أمام كل واحد منا طيلة الحياة.

النشأة في الحديث

لا يخفى علينا أناسٌ يعتمدون في أبحاثهم ومناهجهم واستدلالاتهم على القرآن الكريم فقط، مصدراً للتشريع وتعاليم الإسلام، ويتناسون، بل وأحياناً يرفضون الاستناد إلى أي دليل من الحديث الشريف. ولا يقبلون الانتفاع بعلم الحديث بحجة أنّ الحديث النبوي لم يكتب في عهد الرسول، ولم يُتعهد بالحفظ كالقرآن الكريم، فامتدت إليه يدُ الدسيسة والتحريف من جهة، وأنّه من لفظ بشر قد يخطئ ويصيب، من جهة أخرى.

لكنّ القرآن الكريم يؤكد أنّ هذا اللفظ النبوي معناه من الله تعالى:

(والنَّجمِ إذا هَوَى، مَا ضَلّ صَاحبُكُم وَمَا غوى، وما يَنطِقُ عنِ الهَوى، إِنْ هُو إِلا وَحيٌ يُوحى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم 1 – 5).

ولقد حاول المضلّون منذ الماضي النيل من شخصية النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هدم لهم ركائز أباطيلهم، وضيّق الحصار عليهم، فكانت شخصيته الكريمة بذاتها وبكامل صفاتها معجزة تسعى على الأرض بما جمعت من الشمائل الطيبة.

ولقد تنبأ الرسول الكريم عن طريق الوحي بقوم يظهرون في جيل من الأجيال يرفضون الحديث ويقبلون فقط بالقرآن الكريم، وإنّ هذا

الإخبار المسبق عنهم هو أقوى رد عليهم. وفي حديث عنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ ، يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي ، فَيَقُولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ ، أَلا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

وأقتبس هنا ما ورد في كتاب شرح سنن ابن ماجة (عبدالعزيز الراجحي) في باب تعظيم حديث رسول الله والتغليظ على من عارضه [قال المصنف رحمه الله تعالى : باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتغليظ على من عارضه :حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدثني الحسن بن جابر عن المقدام بن معدي كرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله).

وهذا فيه تعظيم السنة، والعناية بها، ووجوب العمل بها، وفيه الرد على من أنكرها، وقول النبي ﷺ (يوشك الرجل متكئاً على أريكته)، أي :على سريره أو مكانه، وفي اللفظ الآخر : (يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه

استحللناه، وما لم نجد فيه تركناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله).

وفي هذا تحذير من قول بعض الناس :نعمل بالقرآن ويكفينا، وقد وجدت طائفة تسمى :القرآنيون، يزعمون أنهم لا يعملون إلا بالقرآن ولا يعملون بالسنة، فهؤلاء ينطبق عليهم هذا الحديث، وهؤلاء كذَبَة، فلو كانوا يعملون بالقرآن لعملوا بالسنة؛ لأن الله أمر بالعمل بالسنة، قال تعالى : ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾الحشر7 وقال : ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾المائدة92] انتهى الاقتباس.

وتمتد الأقلام والألسن للنيل من كتب الحديث الشريف وعلى رأسها صحيح البخاري، تمهيدًا على حسب أمانيهم للنيل من هذا الدين الحنيف الذي يعادونه. وفي سياق موضوعنا عن نشأة الإنسان فإننا نجد الموضوع قد تطرق إليه الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرنًا بشكلٍ أرهق العلماء الماديين حين حاولوا تأويل مفرداته وتحريف معانيه، وعلى رأسهم وليم كامبل.

وإننا نقتصر على ذكر حديثين صحيحين جاءا في بيان خلق الإنسان وأسراره، وهما:

الحديث الأول:

(عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إنّ أحدكم يُجمعُ خَلقه في بطن أمه أربعين

يوماً نُطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسَلُ الملَك فينفخ فيه الروح، ويُؤمرُ بأربع كلمات، يكتب رزقه، وعمله، وشقيّ أو سعيد) (رواه البخاري ومسلم).

وذكرنا سابقاً أنّ المقصود من النطفة ليس فقط ما يقذفه الرجل وإنما يشمل معناها مراحل متقدمة من تطور البيضة الملقحة، ويشير هذا الحديث الشريف إلى حقائق علمية ظل علماء الأجنة يجهلونها أمداً طويلاً.

فقد كانوا يظنون أنّ ما يطرأ على الجنين في رحم المرأة هو مجرد نمو، أي ازدياد في الحجم والوزن فقط، وعندما اكتشف العالم (لوفنهوك) وتلميذه (هام) النطفة، ظنّا أنّها الإنسان في أصغر أشكاله، ينمو في الرحم حتى يبلغ حجم الجنين دون أن يطرأ عليه تغيير في شكله وتركيبه، لكنّ العلم فيما بعد اكتشف ما حدّث به الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً.

ونجد أنّ ظاهر الحديث يدلّ على أنّ مدة كل مرحلة تمرّ بها النطفة هي أربعين يوماً، فيكون مجموع المراحل الثلاث – النطفة والعلقة والمضغة – هي مئة وعشرون يوماً.

ثم بعد ذلك ينفخ الروح في الجنين، ولكن لا ينفخ الروح في الجنين إلى بعد ظهور أعضائه كاملة، ويؤكده حديث نبوي آخر.

ويؤكد العلم اليوم أن أعضاء الجنين تتمايز بشكل كامل ويظهر الرأس وينتصب ويتقوم الجسم بعد الفترة المضغية، التي تنتهي بنهاية الأسبوع السابع أي بعد حوالي أربعين أو خمسة وأربعين أو ثمانية وأربعين يوماً من بدء الإلقاح.

فهل هناك تناقض بين هذا الحديث الشريف ومعطيات العلم؟

إنّ حديثًا آخر في خلق الإنسان وبرواية أخرى يشرح لنا بدقة أكثر خلفيات هذا الحديث. ويرد الحديث الثاني بروايات ثلاث تختلف عن بعضها البعض في الصيغة ولكن المادة تبقى واحدة، ويبقى راوي الحديث واحداً.

الحديث الثاني:

1 – **الرواية الأولى:** (عن حذيفة بن أُسيد يُبَلِّغ به النبي ﷺ قال: يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقيٌ أو سعيد، فيكتبان، فيقول أيا رب أذكرٌ أو أنثى، فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص) رواه مسلم.

2 – **الرواية الثانية:** (عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا مرَّ بالنطفة ثِنتَان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصوَّرها وخلق سمعها وبصرها ولحمها وعظامها، ثم قال يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يا رب

أجله؟ فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص) رواه مسلم.

3 – **الرواية الثالثة:** (عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذنيّ هاتين يقول: إنّ النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتصوَّر عليها الملك فيقول يا رب أذكر أو أنثى، فيجعله الله ذكراً أو أنثى، ثم يقول يا رب أسويّ أو غير سوي، فيجعله الله سوياً أوغير سوي، ثم يقول يا رب ما رزقه، ما أجله، ما خلقه؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً) رواه مسلم.

فهذه هي الروايات الثلاث التي وردت عن سيد الأنبياء والمرسلين، ومعلم العلماء والأميين نراها بلفظها وصيغتها تختلف، وبمضمونها وجوهرها تتشابه.

إنّ أول اختلاف نلحظه هو الأعمار المختلفة للحوادث نفسها، فمرّة يمضي على النطفة أربعون ليلة ومرة خمسة وأربعون وأخرى ثنتان وأربعون، وهي في الرحم تنقسم وتتمايز حتى يأتيها الملك فيصورها (يخلقها).

إنّ هذه الأعمار المختلفة تدل على اختلاف الأجنة فيما بينها في الزمن اللازم لبلوغ مرحلة ما من التنامي، ومن الملفت للنظر بشكل مدهش أنّ هذه الأعمار الواردة تطابق تماماً نهاية الفترة المضغية، لأنها تحسب ليس ابتداءً من بدء التنامي، وإنما ابتداءً من استقرار

النطفة في الرحم، أي بعد ثلاثة أيام من بدء التنامي، فبإضافة هذه الأيام الثلاثة إلى فترة التنامي حتى نهاية المضغة يكون عدد الأيام قريباً مما يذكره الحديث (42 أو 45 أو 48) يوماً.

ويشير الحديث الشريف إلى أنه في الأسبوع السابع من التنامي ومع انتهاء الفترة المضغية يأخذ الجنين صورته البشرية المميزة، وتكون الأذنان والعينان والجلد والعضلات والعظام قد تنامت وتمايزت إلا المناسل، فإن الجنين يكون مزدوج الجنس، واعتباراً من هذه اللحظة ستبدأ هذه المناسل بالتمايز إما إلى الذكر أو إلى الأنثى.

وبعد هذه الفترة أيضاً يحكم على الجنين بأن يكون سوياً خالياً من التشوهات والعاهات، أو غير سوى حسب تأثره بالعوامل المشوهة خلال الأشهر الثلاثة الأولى على وجه التحديد.

ويبين هذا الحديث أنّ تخلّق الجنين وتمايز أعضائه يتم مع نهاية الأسبوع السابع كما اكتشف العلم ذلك، أما المدة الظاهرية في الحديث الأول فهي حصيلة تفسير لفظي للحديث (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك).

ولقد ذكرنا أنّ النطفة هي موضوع المراقبة، وهي التي تخضع للتطور والنمو والتنامي فتنتقل من شكل لآخر نطفة فعلقة فمضغة، ولكن الخلق يجمع في أربعين يوماً فتتمايز النطفة بعد أربعين يوماً،

وتتمايز العلقة مثل ذلك ضمن الأربعين يوماً وتتمايز المضغة مثل ذلك في الأربعين يوماً.

فالجزء الأول من الحديث يطلق تسمية النطفة على كل المراحل الموجودة خلال الأربعين يوماً، وفي الجزء الثاني يأتي تفصيل هذه النطفة حيث تأخذ أشكالاً أخرى، ففي مرحلة العلقة تكون النطفة بشكل العلقة، وفي فترة المضغة تكون النطفة بشكل المضغة، فتكون النطفة والعلقة والمضغة هي مراحل متتابعة لتطور النطفة خلال أربعين أو خمسة وأربعين أو ثمانية وأربعين يوماً، والله ورسوله أعلم بأسرار الحديثين.

من النشأةِ إلى البعث

إنّ الحياة الإنسانية التي بدأت على الأرض، نشأت من عناصرها المادية التي كونت الجانب المادي في هذه الحياة، لكنّ هذه النشأة، وهذه العناصر المادية تُوِّجت بالعنصر الأهم، وهو العنصر اللا أرضي الذي كوّن الجانب المعنوي في الحياة الإنسانية وهذا العنصر يكشفه لنا حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد).

فبعد أن تنتهي مرحلة المضغة، ويتخلق الجنين ويتنامى، يبعث الله فيه الروح فالجنين حتى نهاية الفترة المضغية ليس فيه روح، وإنما فيه حياة، والحياة شيء مختلف عن الروح.

فمع وجود الحياة نرى في الحديث الشريف تنامياً للجنين وانتقالاً من مرحلة إلى أخرى عبر تضخم الخلايا وانقسامها وتمايزها.

ومع بعث الروح نرى تكليفاً، ونمطاً حياتياً يشتمل على السعادة والشقاء وهي أمور معنوية من اختصاص الروح وحده.

لقد خلق الله تعالى آدم من طين، ثم أضاف إليه العنصر الأسمى، الذي جعله تسجد له الملائكة، إكراماً لا تعبداً، ثم جعله يكون سيداً في الأرض ومديراً لشؤونها ثم جعله قادراً على تمييز الخير من الشر، ثم جعله مكلفاً بالعبادة، مطالباً بأسمى القيم والأخلاق.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) (الحجر 28 – 29).

فالله تعالى لم يأمر الملائكة بالسجود إلا بعد أن أتم خلق آدم، وكمل أجزاءه، ونفخ فيه من روحه، وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه إضافة خلق إلى خالق تشريفاً لآدم.

والروح شيء نوراني عجيب من خلق الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء 85).

إنّ امتزاج الروح بمادية الإنسان جعل منه عنصراً روحانياً لا ينتهي بنهاية اللحم والدم ولا يكتمل على الأرض، بل يتابع مسيرة تطوره من النشأة إلى البعث،

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ المؤمنون (15).

فالموت هو نهاية حياة الإنسان على الأرض، وهنا يجب على الإنسان أن يعيد للأرض عناصرها الثمانية عشر، والتي بني منها

جسده، ليتجرد بشكل كامل من المادية، وتبقى روحه التي لا تفنى أبداً، ليعاد بعثها مرة أخرى للعرض والحساب.

ويستمر الإنسان في تنقله من طور إلى طور حتى يشهد آخر أطواره فإذا هو البعث والنشور، وإذا بالحياة الكاملة المبرأة من النقائض الأرضية، ومن ضرورات اللحم والدم ومن الخوف والقلق، ومن التحول والتطور.

﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ المؤمنون (16).

وإذا هو نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان، ذلك لمن يسلك طريق الكمال. أم إن الناس في ريب من البعث، وفي شك من زلزلة الساعة؟ وكل ما يدور في فلك الحياة دليلٌ على البعث، نشأة الإنسان دليل على البعث، نهايته دليل على البعث فناء النجوم واضمحلال الشموس دليل على البعث.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (الحج 5).

إنّها لحظات ممتعة حينما يتأمل الإنسان خلق الله تعالى، ويجول في متحفٍ من إبداع أحسن الخالقين، إنّها لحظات تعيد خلق الإنسان بحس جديد وإدراك جديد وتمتعه على الدوام بحياة جديدة، تتقلب من طور إلى طور إبتداءً بالنشأة ووصولاً إلى البعث.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان 11).

صدق الله العظيم.

الخاتمة

في عرض سلسلة تطور الحياة على الأرض وظهور الأنواع الأرقى تباعًا بدءًا من الحياة المائية إلى الحياة على اليابسة والجو، هناك توافق منطقي بين ظهور الأنواع وهيئة الأرض بمناخها وحركة طبقاتها وظروفها الحياتية العامة، وكانها تقول لنا: إن كل نوع من تلك الأنواع الحية نباتيًا كانت أو حيوانية إنما ظهرت للوجود بعد أن ظهرت متطلباتها أولًا، فكانت قرينةً على اتجاه هذه المتطلبات أيضًا نحو الرقي.

كما بين عرض هذه السلسة عدم وجود أدلة أو قرائن تشير إلى تطور هذه الكائنات من بعضها البعض. وإن أكبر تحور يمكن أن يطرأ على المخلوق لا يكون إلا طفرةً وراثية، والطفرة لا تنتج أنواعًا من أنواع، ولا تحدث تعديلات أفضل.

وفقًا لمبدأ السببية فإن كلّ شيء خُلق بقدر، فالحوادث الطبيعية التي أدّت خلال الأحقاب الجيولوجية إلى استقرار الأرض قد مرّت عبر سلسلة منطقية ومتكاملة، وكل حادثة كان لها سببًا، كما أدت هي ذاتها إلى حادثة أخرى، وهكذا فإن الأرض مرّت بمراحل طويلة ومعقّدة وفق السنن الكونية التي سيكتشفها الإنسان لاحقًا ويفهمها، ويدرك أن هذه السنن لا يمكن أن توجد بمحض الصدفة.

حتى ظهور ما سمّاه الأنتربولوجيون بالإنسان المستحاث لم يكن عبثًا ومن الطبيعي وفق السنن الكونية ووفق مبدأ السببية أن تظهر كائنات غاية الشبه بالإنسان تقوم باختبار الظروف الحياتية على الأرض قرينةً أخيرة على أن الأرض قد باتت على أكمل استعداد لاستقبال المخلوق الجديد المكلف بعمارتها على قيم الإصلاح.

ولم تقوَ حجة التشابه على الوقوف قرينً لإثبات صلة تلك المخلوقات – الإنسان المستحاث، أو الشامبانزي – بالإنسان، حيث كان لهذه الحجة وجهٌ آخر. وإن كانت ستدلّ على شيء فإنها ستدلّ على وحدة الخلق ووحدانية الخالق.

وحينما نبحر في رحاب القرآن الكريم ونلتمس أوجه إعجازه البياني ونفسر آياته العلمية ونزداد إيمانًا بمصدره الإلهي، ننهل منه على علم ويقين منشأ الإنسانية وسبب وجودها، وندرك أصل الإنسان وفحوى خلافته، وأن الأمر إنما هو اختبارٌ في حياة قصيرة سرعان ما تنتهي، وأن العبرة في الخواتيم، حيث النشور والوقوف للحساب في يوم تشخص فيه الأبصار.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج2

تم بعونه تعالى

المراجع

1 – تفسير القرطبي.

2 – تفسير الشعراوي.

3 –صحيح مسلم

4– د. زرزور، عدنان محمد، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، دار نشر الأعلام، عمّان 2005.

5– د. عامري،سامي، العلم وحقائقه بين سلامة القرآن الكريم وأخطاء التوراة والإنجيل، دار نشر رواسخ،الكويت 2020.

6 –د. عتر،نور الدين، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، دمشق 1989.

6 – الشعراوي، محمد متولي، الأدلة المادية على وجود الله تعالى، القاهرة.

7 – د. البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، دمشق 1986.

8 – سراج الدين،عبد الله، هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، حلب 1988.

9 – د. إسماعيل، محمد جميل، علم المستحاثات، جامعة حلب 1997

10– د. باشا،محمد علي فؤاد ابراهيم، د. كفا، جمال، د. إسماعيل، محمد جميل، الجيولوجيا التاريخية، جامعة حلب.
11 – د. غلاب، محمد سيد، أصل الإنسان، جامعة دمشق 1969.
12 – د. غلاب، محمد سيد، تطور الجنس البشري، جامعة دمشق 1969 .
13 – روستان، جان، الإنسان، باريس.
14 – د. الجباوي، علي، السلالات البشرية، جامعةدمشق 1998.
15 – د. موريسون، كريسي، العلم يدعو للإيمان.
16 – د. كنعان، أحمد، د. شوشرة، محمد كمال، علم الجنين العام، جامعة دمشق 1977.
17 – نستورخ، أصل الإنسان، موسكو 1970.
18 – داروين، شارلزر وبرت، أصل الأنواع.
19 – أكازاوا، تاكيرو، محاضرة بعنوان " نتائج التنقيبات الأثرية في كهوف عفرين " حلب 1966.
20 – د.محمود، مصطفى، لغز الحياة، القاهرة.

الفهرس

1 – مقدمة
2 – تطور الحياة على الأرض
3 – السببية
4 – الإنسان المستحاث
5 – حجة التشابه
6 – أسرار يكشفها القرآن
7 – خليفة الله
8 – النشأة في الحديث
9 – من النشأة إلى البعث